# المبحث الأول

# الموشحات الأندلسية

## ١ ـ فن الموشحات :

فن من فنون الشعر العربي التي اينعت في الأندلس . وسنتوقف عند ابرز قضاياه المهمة :

## اولاً : بين اللغة والاصطلاح :

إن المفهوم الاصطلاحي لهذا الفن . متصل بالمفهوم اللغوي . فالموشح اسم مفعول من الفعل وشح . وفي القاموس : الوشاح ( بالضم والكسر ) كرسان من لؤلؤ وجوهر . منظومان يخالف بينهما . معطوف أحدهما على الآخر . وأديم عريض يرصع بالجوهر تشدّه المرأة على عاتقها وكشحيها . والجمع وشحٌ . وأوشحة . ووشائح .. ويقال توشح بسيفه وثوبه . تقلده . ولسنا نعلم من أطلق هذه التسمية لأول مرة على الفن الشعري[١] . ويرى الدكتور احسان عباس أن السبب في تسميته « تصور الاندلسيين هذا النوع من النظم كرقعة الثوب وفيه خطوط ( اوسمها اغصاناً ) تنتظمه أفقياً أو عامودياً »[٢]

ومن هنا فان الموشحة في الاصطلاح الأدبي نوع من النظم يشبه الوشاح الذي تتخذه المرأة للزينة . والجامع بين المعنيين . مقرون بفكرة التجميل المنوع . المعتمد على التقابل[٣] . فهو يتألف من فقرات مختلفة العدد والمقاطع . اختلف الباحثون في تحديد اسمائها وضوابطها من حيث الوزن والقافية .. وقديماً عرّف ابن سناء الملك ( ت ٦٠٨ هـ ) الموشح فقال :

كلام منظوم على وزن مخصوص . يتألف في الأكثر من ستة أقفال . وخمسة ابيات . وفي الأقل من خمسة أقفال .

---

( ١ ) الموشحات والازجال ٧ ( مصطفى عوض الكريم . دار المعارف بمصر ١٩٦٥

( ٢ ) تاريخ الأدب الأندلسي ٢ / ٢٢٠

( ٣ ) الادب الاندلسي ١٤٤ .

**ثانيا : اجزاء الموشحة** : اختلف في تسمية اجزاء الموشح . واليك ابرزها :

**أ : المطلع ، او المذهب** : وهو القسم الاول من الموشحة يتألف من شطرين الى ثمانية وخمسة ابيات . ويقال له الاقرع . فالتام ما ابتدى فيه بالاقفال . والاقرع ما ابتدىء فيه بالابيات اشطار .

**ب : الدور** : وهو مجموعة من الأشطار . تتركب من مجموعة من الفقرات . مختلفة العدد . تأتي في أشطار متباينة الأقسام . وفي الغالب يلتزم قافية الدور الواحد . ويغيرها في الدور الذي يليه .

**جـ : القفل** : وهو مجموعة الاشطار التي تلي الدور وتكون غالباً على غرار المطلع من حيث بناؤه وقوافيه . ويلتزم الوشاح في الاقفال . الوزن . وعدد الأشطر . واجزاءها . وهي تبنى على المطلع . او على قفل البيت الأول في الموشح الأقرع . او على القفل الاخير ( الخرجة ) .

**د : الخرجة** : وهي القفل الاخير من الموشحة . وأهم جزء فيه . وقد اشترط ابن سناء الملك[1] فيها . أن تكون حجاجية . من قبل السخف . قزمانية من قبل اللحن . حارّة محرقة . حادّة منضجة من ألفاظ العامة ولغات الدّاصة ( اللصوص ) . فان كانت معربة الألفاظ . منسوجة على منوال ما تقدمها من أبيات الموشحة . خرج الموشح من ان يكون موشحاً . الا في المدح . وقد تكون الخرجة معربة . بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً . هزازة . سخّارة خلابة . بينها وبين الصبابة قرابة .. وهذا معجز معوز .. أي انه قليل . ولم يجد منه ابن سناء سوى موشحتين .

وفي موضع آخر يذكر ان الخرجة قد تكون عجمية اللفظ . بشرط أن يكون لفظها في العجمي سفساقاً نفطياً . واكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان . والسكرى والسكران .. وتأتي في البيت الذي قبل الخرجة عبارة : « قال . أو قلت . او قالت . او غنى . او غنيت . او غنت .. »

ومن فهرس الخرجات الرومية[2] الذي أورده الدكتور غازي في آخر ديوانه نستطيع أن نقرر أنها لا تؤلف نسبة كبيرة في الموشحات . اذ تؤلف حوالي ١٠ ٪ من

---

(١) دار الطراز ٤٠

(٢) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٣٠ .

مجموع الخرجات المستعملة حيث جاءت ( ٤٥ ) موشحة بخرجة أعجمية من مجموع الديوان الذي تضمن ٤٤٥ موشحة .

تطلق تسمية السمط على الشطر الواحد في الدور ، كما يطلق على أشطار ( اجزاء ) المطلع او القفل أو الخرجة تسمية الغصن . وأما البيت ، فهو الدور والقفل الذي يليه . ويراعي في الأدوار أن تتفق في الوزن ، وعدد الأشطر والفقر ، لا في القوافي ، إذ يحسن أن يستقل كل دور بقواف مغايرة »[١]

واليك نموذجاً من الخرجة الاعجمية من موشحة ابن القزاز التي مطلعها[٢] :

من ورد التسنيم ، من سلك فَلْج . ذي غروبْ . في قلْتِ
ان ذاقه عاطش . مُلظَى وجيبْ . اطفى اللهيبْ . في الوقتِ

والخرجة هي :

مِوْسيدى ابراهيم . بانوا من ذلْجْ . فانت ميبِ . ذي نُخْتِ
إن نون شنون كارش . بيريم تيب . غرمي أوب لقَرْتِ

ومعناها :

ياسيدي ابراهيم . ياصاحب الاسم العذب
أقبل إلي ، في المساء . فإن لم ترد . جئت اليك . ولكن أين أجدك ؟

## ثالثا : أولية الموشحات ومراحلها :

يشير عدد من المصادر الأندلسية الى اسم أول مخترع للموشحات . وأقدم من ذكره الحجاري[٣] ( توفي بعد ٥٣٠ هـ ) حيث سماه مقدم بن معافي القبري . اما ابن بسام[٤] ( ت ٥٤٢ هـ ) فيسميه ( محمد بن محمود القبري الضرير ) وذكر الحميدي[٥] ( ت ٤٤٨ هـ ) انه ( محمد بن حمود )

---

( ١ ) في اصول التوشيح ، ١٢

( ٢ ) الموشحات والازجال ١٦ ، وينظر ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ١٨٦

( ٣ ) هو ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الحجاري ، ذكر ذلك في كتابه المسهب في غرائب المغرب ، نقل ذلك ابن سعيد في كتابه المقتطف من ازاهر الطرف ، ينظر اعمال مهرجان ابن خلدون ص ٤٧٧ ، وقد نقل هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته الفصل الاخير ، اشعار العرب واهل الأمصار لهذا العهد كما اشار د . الاهواني الى ذلك .

( ٤ ) الذخيرة ١ / ١ / ٤

( ٥ ) الجذوة ٢٥٥

ويرى الدكتور الاهواني أن هذين الأسمين لشاعرين اثنين نشآ في بلدة واحدة هي ( قبرة ) قرب قرطبة . وكانا في عصر واحد . فأما محمد فضرير ، واما مقدم ففير ضرير .

وقد ذكر ابن خلدون[١] نقلاً عن الحجاري أنّ مقدماً من شعراء الأمير عبدالله ابن محمد المرواني ( ٢٧٥ ـ ٣٠٠ ) اما الحميدي فيرى أنه من شعراء عبد الرحمن الناصر[٢] الا أنه لا ينسب اليه اختراع الموشحات . ولم تصل أية موشحة لاحد هؤلاء . فاذا صح أن أحدهم نظم موشحة . فأن أولية الموشح تكون في الأندلس .

اما الذين نسبوا موشحة ( ايها الساقي ) الى ابن المعتز فانهم يزعمون مشرقية هذا الفن . ولكننا اذا ناقشنا نسبة هذه الموشحة الى الامير العباسي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ فأننا سننتهي الى نفي نسبتها عنه . اذ أن ورودها في ديوانه[٣]. لا يعد دليلاً على صحة نسبتها اليه ويفسر هذا على أنه سهو من الناسخ . وقد اجتمع لدى الباحثين من الأدلة ما ينفي نسبتها اليه . ومن البحوث المبكرة . في هذا الموضوع . بحث الاستاذ طه الراوي الموسوم : « وهم شائع . موشحة ابن زهر لا موشحة ابن المعتز »[٤]. واليك هذه الادلة :

**اولاً** : ان هذه الموشحة وردت في مصادر أندلسية وغير أندلسية منسوبة الى ابن زهر الحفيد (ت ٥٩٥ هـ )الذي عاش بعد ابن المعتز بنحو ثلاثة قرون. فقد أوردها ابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ ) في دار الطراز. وابن دحية (ت ٦٣٣ هـ ) في المطرب. وابن ابي اصيبعة ( ت ٦٦٨ هـ ) في عيون الانباء . وابن سعيد ( ت ٦٨٥ هـ ) في المغرب . والصفدي ( ت ٧٦٤ هـ ) في الوافي . وابن الخطيب ( ت ٧٧٦ هـ ) في جيش التوشيح . والنواجي ( ت ٨٥٩ هـ ) في عقود اللآل . وغيرهم[٥]. كلهم نسبها الى ابن زهر الحفيد . واما المصادر التي نسبتها الى ابن المعتز فقليلة[٦].

---

( ١ ) المقتطف ٢٥٥

( ٢ ) الجذوة ص ٢٥٥

( ٣ ) ديوانه ( بتحقيق د. يونس السامرائي ) ٢ / ١٧٠ . وممن اعتمد على هذه الموشحة في نسبة هذا الفن الى المشرق . كامل الكيلاني . نظرات في تاريخ الادب الاندلس ص ٢٧٢ . وكذلك الدكتور صفاء خلوصي في كتابه فن التقطيع ) ص ٢٠٢ .

( ٤ ) مجلة الرسالة المصرية العدد ( ١٠ ) سنة ١٩٤٢

( ٥ ) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٦

( ٦ ) اشار الدكتور يونس السامرائي ٢٠ / ١٦٩ ـ ١٧٠ الى ثلاثة مصادر تنسب الموشحة الى ابن المعتز . ولكنه رجح عدم نسبتها اليه .

**ثانياً** : بعد الموشحة ، عن روح الشاعر وعواطفه ، كما أنها لا تمثل شيئاً من نظراته في الحياة ولا فنه الأدبي وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التي عرف بها ، وليس فيها شيء من خصائص فنه»[١] . لا تعرف لابن المعتز موشحات اخرى ، فلو صحت نسبة هذه الموشحة ، فمن غير المعقول ان تكون الوحيدة التي نظم ، كذلك لا نجد في ترجمته في المصادر التي ترجمت له ، انه كان وشاحاً ، وحين ألف كتابه البديع ، وتناول ثمانية عشر فناً من فنونه ، لم يذكر فيها هذا الفن الجديد .

**ثالثاً** : لو كان ابن المعتز صاحب هذه الموشحة لشاع هذا الفن في المشرق ، ولكن الذي حصل أنه شاع في الأندلس ولم يعرف في المشرق الا بعد ثلاثة قرون .

**رابعاً** : ان هذه الموشحة جاءت موافقة ومناظرة لموشحات اخرى[٢] ، أثرت عن ابن زهر الحفيد في روحها وأسلوبها وبنائها[٣] .

لقد ظن الدكتور خفاجة ان الموشحة لأبن معتز الأندلس ، مروان بن عبد الرحمن الأمير الشاعر المشهور ، وانها نسبت لابن المعتز العباسي خطأ ، حتى صح لديه نسبتها لابن زهر الحفيد[٤]

ومن الوشّاحين المتقدمين الذين نصت المصادر على خوضهم في هذا الفن ، ابن عبد ربه ( ت ٣٢٨ هـ ) ، فقد ذكر ابن بسام انه أول من سبق الى هذا النوع ، وأشار الى عدد من شعراء عصره في هذا الفن ، مكرم بن سعيد ، وابني ابي الحسن ، وأما يوسف بن هارون الرمادي ( ت ٤٠٣ هـ ) ، فقد كان « يكثر من التضمين في المراكيز ، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة»[٥] وهي عبارة يفهم منها ان الشاعر كان في المراحل الاولى لنظم الموشحات .

---

( ١ ) ابن المعتز وتراثه ـ خفاجي ( ط الحسين التجارية القاهرة ١٩٤٩ ) وينظر الموشحات الاندلسية ـ محمد زكريا عناني ص ١٧ ، فن التوشيح ـ الكريم ٩٤ ـ ٩٧

( ٢ ) في ديوان الموشحات الاندلسية ( ٢ / ٦٥ ـ ١٢٢ ) خمس وعشرون موشحة لابن زهر منها ست موشحات في بنية هذه الموشحة .

( ٣ ) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ح ٢ / ١٦٥ ـ ١٦٦ ( ط دار مارون عبود ، بيروت ١٩٧٩ ) كما ينظر ، الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ، حيث اورد حججاً كثيرة في هذه القضية ص ١٠٩ .

( ٤ ) ابن المعتز وتراثه ١٧٨

( ٥ ) الذخيرة ١ / ١ / ٤٦٩

ولعل السبب في قلة معلوماتنا عن المراحل الاولى للمرشحات مارآه عدد من الدارسين المحدثين[1] من ان علماء الاندلس لم يكترثوا بها ولم يفردوها في صفحات من كتبهم واكتفوا بالافتخار بأنها أختراع اندلسي . فقد اعجب ابن بسام بها لكنه اعتذر عن ايرادها لان اكثرها على غير اعاريض اشعار العرب .[2] وكذلك كان شأن المراكشي ( ت ٦٤٧ هـ ) في كتاب المعجب وكان اعتذاره مماثلاً ( لان العادة لم تجر بايراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة )[3] وهذه النظرة هي التي جعلت المقّرى يشعر بشيء من الحرج . وهو يورد موشحات . ثم لم يجد بأساً لأنها في مدحه ( صلى الله عليه وسلم )[4]

وهذا الموقف مقبول وهو رد فعل طبيعي تُواجه به حركات التجديد . على امتداد العصور . لا سيما ان النظرة كانت الى المرشحات على انه فن شعبي لا يبلغ مقام الشعر فضلاً عن أن النظرة المثالية للشعر كانت معقودة بالشعر المشرقي الذي لم يعرف عنده هذا الفن[5]

إن هذه النظرة هي التي جعلت هذا الفن محاطاً بالغموض في مراحله الأولى وهي تفسير لنا موقف كبار الشعراء في الاندلس الذين خلت دواوينهم من الموشحات امثال ابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس وغيرهم .

وجاء المحدثون فعادوا يبحثون في بطون الكتب والمصادر للوقوف على نشأة هذا الفن ولتدوين نصوصه الشعرية فكان أن انتهوا الى أن أقدم وشاح وصلت الينا موشحته هو عبادة بن ماء السماء ( ت ٤١٩ هـ أو ٤٢١ هـ ) حيث وصلت له

---

( ١ ) في اصول التوشيح ص ١٥

( ٢ ) الذخيرة ١ / ١ / ٤٧٠

( ٣ ) ازهار الرياض ٢ / ٢٥٨ ، موشحات مغربية ١٢٤

( ٤ ) المعجب ص ١٤٦ ، وينظر هامش المحقق العريان في الصفحة ذاتها رقم ( ١ )

( ٥ ) ذكر الدكتور احسان عباس ان الحجاري ( توفي بعد ٥٣٠ هـ ) في كتابه المسهب كان اول من خرج على هذه القاعدة ، وذكر نقلاً عن الذيل والتكملة أن ممن أفرد هذا الفن بكتاب ابن سعد الخير البلنسي ( ت ٥٢٥ هـ ) في كتابه « مشاهير الموشحين بالاندلس » او « نزهة الانفس وروضة التأنس في توشيح اهل الأندلس » ذكر فيه عشرين رجلاً . ( تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٢١٨ .

موشحتان .[1] وقد اثنى ابن بسام على شاعريته وبراعته في هذا الفن . واوضح دوره فيها فقال : « فأقام عبادة هذا منآدها وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تُسمع بالأندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه .. »[2]

ومن الوشاحين المتقدمين قرينه . محمد بن عبادة القزاز . شاعر المعتصم بن صمادح . في المريّة . وابن اللبانة الداني ( ت ٥٠٧ هـ ) . والأعمى التطيلي ( ت ٥٢٠ هـ ) . وابن باجة الفيلسوف ( ت ٥٣٣ هـ ) . وابن بقي الطليطلي ( ت ٥٤٠ هـ ) . وابن قزمان ( ت ٥٥٥ هـ ) .

ويرى الدارسون أن الموشحات مرت بعدة مراحل حتى انتهت في صورتها الأخيرة فقد أشار الدكتور سيد غازي الى ثلاث منها ،

**المرحلة الاولى** : كان الوشاح يضع الموشحة على القفل أو المركز دون تضمين فيها ولا فقر .

**المرحلة الثانية** : انتقل الوشاح نقلة جديدة حيث ضمن في الاقفال أو المراكيز وأتى بأسماطها مركبة أو مرصعة . وكان الرمادي أول من اكثر من ذلك .

**المرحلة الثالثة** : وتتمثل في ما أحدثه عبادة بما يسمى ( التضفير ) وأخذ يضمن في الادوار ويلتزم مواضع الوقف ويأتى بأغصانها مع أسماط الأقفال مركبة أو مرصعة .

وفي رأي الدكتور هيكل ان الموشحات مرت بمرحلتين . الاولى قبل القرن الخامس الهجري والثانية بعده . وفي رأي الدكتور احسان عباس أن الموشح في طور نشأته فيما ينيف على قرن مرّ بثلاث مراحل .[3] ووجد الاستاذ مقداد رحيم أن الموشحات مرت في عمرها الطويل خلال تسعة قرون بأدوار ثلاثة قبل النضج والتكامل .[4]

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٤٢٦ ( ط محمد محيي الدين عبد الحميد ) ، وقد نسب الصفدي احدى الموشحتين الى ابن القزاز ، الوافي بالوفيات ٢ / ١٨٩ ، وتنظر ترجمته في الجذوة ٢٩٢ ، الذخيرة ١ / ١ / ٤٦٨ ـ ٤٨٠ ، الصلة ٢ / ٤٥٠ ، فوات الوفيات ١ / ٤٢٥ .

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٤٦٩ .

(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢٢٠ .

(٤) الموشحات في بلاد الشام ، ٥٠ وما بعدها .

ويبدو ان الموشحات في مراحلها الاولى ، كانت صورة مختلفة بعض الشيء ، عن المسمطات المربعة والمخمسة ، التي يحتفظ ديوان الشعر العربي ، بأمثلة كثيرة منها ، كما احتفظ بانماط أخرى من المزدوجات ، والمثلثات ، والمربعات ، والمخمسات ، التي عرفت في المشرق ، وأفاد الوشاحون منها في بناء الدور والقفل . وقد ساق الدكتور سيد غازي[1] امثلة كثيرة لتلك المحاولات .

وفي إطار تدوين الموشحات ، كانت أول محاولة وصلت الينا ما قام به ابن سناء الملك ( ت ٦٠٨ هـ ) حيث ضمن كتابه دار الطراز سبعين موشحة منها اربعة وثلاثون موشحة مغربية ، والبقية مشرقية ثم تلاه ابن الخطيب ( ت ٧٧٦ هـ ) في كتابه « جيش التوشيح » أورد فيه ( ١٦٥ ) موشحة أندلسية وجاءت محاولات أخرى بعدهما .

وفي العصر الحديث استطاع سيد غازي ، أن يجمع فيوعي ، موشحات الاندلس طيلة خمسة قرون ـ في محاولة جريئة ـ وأطلق على هذا الجمع ، « ديوان الموشحات الاندلسية » وكان مجموع ما وقف عليه ( ٤٤٥ ) موشحة . بالرجوع الى حوالي ثلاثين مصدراً بين مطبوع ومخطوط[2]

وواضح من هذه الاحصائية ، وجود ثغرة في الموشحات من حيث النصوص ـ في العصر الاموي اذ فقدت المحاولات الاولى لنظم الموشحات .

كذلك يتضح لنا أن العصر الذهبي للموشحات هو عهد الموحدين ، وأن عدداً غير قليل من الموشحات لما يزل مجهول النسبة .

---

( ١ ) في اصول التوشيح ص ٢٠ ـ ٢٥ .

( ٢ ) لخص لنا هذا المجموع في مقدمة ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ١٤ على النحو التالي ،

| | | |
|---|---|---|
| العصر الاموي | ٢ موشحتان | لوشاح واحد |
| عصر الطوائف | ٧٨ موشحة | ١٣ وشاح |
| عصر المرابطين | ١٠٧ موشحة | ١٥ وشاح |
| عصر الموحدين | ١٥٧ موشحة | ٢٠ وشاح |
| العصر الغرناطي | ٥٥ موشحة | ١١ وشاح |
| عصر مجهول | ٤٨ موشحة | — |
| المجموع | ٤٤٧ | ٦٩ وشاحاً |

## رابعاً : الموشحات بين الاندلس والمشرق :

يحتدم النقاش بين الباحثين وتختلف الحجج في موطن الموشح ومنشأه . ولا شك ان الاتفاق معقود على أن الاندلس أنجبت هذا الفن ولكن الخلاف قائم حول الجذور التي انبثق منها . والمؤثرات التي أثرت فيه فأنتهى الى هذه الصورة . ومن الباحثين المحدثين استاذنا الدكتور حكمة الأوسي . حيث تناول هذا الجانب بدراسة تفصيلية .[١] والدكتور سيد غازي ..[٢] والاستاذ مقداد رحيم خضر .[٣]

### الاتجاه الأول :

ويرى انصاره . أن الموشح تطور عن الشعر العربي المشرقي . المتمثل في النماذج الشعرية الكثيرة . التي برع فيها الشعراء . وانصرفوا عن الأنماط التقليدية . في أوزان الشعر العربي وقوافيه . فيما عرف بالمسمطات والمزدوجات . وما شابهها . ويقدم هؤلاء أمثلة كثيرة لتلك المحاولات .. في نماذج شعرية . لعصور الشعر العربي . بدأ بأمريء القيس . وانتهاء بشعراء الاندلس . الذين احتذوا نماذجها . بل ذهب أحد الباحثين أبعد من ذلك . حين جعل سورة المرسلات من القرآن الكريم .[٤] أصلاً لنشأة الموشحات . وهو رأى لا يخلو من غلو .. وتعسف . وتتجلى هذه المحاولات بصورة خاصة لدى شعراء العصر العباسي الاول . أمثال أبي العتاهية . وأبي نواس . ومسلم بن الوليد . اذا صح ما نسب اليهم . وقد حاول الدكتور فؤاد رجائي أن يثبت الأثر المشرقي في ظهور هذا الفن . بطريقة أخرى . حيث وجد أن زرياب المغني . كان له تأثير في نقله طريقة الغناء المشرقية . القائمة على أصول النَوبَة الغنائية . وتتمثل هذه الطريقة في عدد من المغنين . يغني كل . حين تأتي نوبته . عدداً من الأبيات . على لحن واحد . بأيقاع وقافية مختلفتين .[٥]

---

(١) فصول في الادب الاندلسي ص ١٢٨ ـ ١٣٨ .

(٢) في اصول التوشيح ص ١٥ وما بعدها .

(٣) الموشحات الاندلسية ص ١٦ وما بعدها .

(٤) نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين ص ٦٤ ، مقداد رحيم الموسوعة الصغيرة ( العدد ٢٢٣ بغداد ١٩٨٦ )

(٥) الموشحات الاندلسية ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ( رجائي ) .

ومَمن ذهب الى القول بالأصل المشرقي من المستشرقين نيكل ، وهارتمان ، ويوهان فك[١] ومن العرب . الدكاترة احسان عباس .[٢] وشوقي ضيف .[٣] وصفاء خلوصي .[٤]

**واما الاتجاه الثاني :**

فيتمثل في آراء الدارسين التي ترى في الموشح ثمرة من ثمار الأندلس اليانعة ومن الذين نحوا هذا المنحى . عدد من مستشرقي الاسبان ، ميندالث پيلانو ، وخوليان ريبيرا ، وغرسيه غومس .[٥] وكذلك عدد من الباحثين العرب ، ومنهم محمد كرد علي .[٦] وعبد العزيز الاهواني ، والدكتور مصطفى عوض الكريم ، وبطرس البستاني .[٧] وعباس الجراري .[٨]

وجد ريبيرا في الموشحات أثراً من آثار الاغاني الجليقية . وهي خلاصة الاغاني الرومانثيه الاسبانية . فالنساء الجليقيات اللاتي انتشرن في البيوت كن يستخدمن تلك الأغاني في الحفلات . وفي ساعات الفراغ . وليس بين أيدينا ما يمكن أن نتأكد به من صحة هذه الفرضية .[٩]

ومن الآراء التي استحوذت على الاهتمام مدى صلة الموشحات بالشعر الفرنسي والاسباني . الجونكلر . والتروبادور . البروفانسيين . اذ وجد بطرس البستاني[١٠] ان الاتفاق الموجود بين هذه المنظومات والموشحات يدل على تأثر العرب بالأدب الاسباني الفرنسي . وهي فرضية . ذهب عدد من الدارسين الى اثبات عكسها .[١١]

---

(١) تنظر تفصيلات هذه الآراء في فصول في الادب الاندلسي ١٢٩ ـ ١٣٣ ، وموشحات مغربية .

(٢) تأريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٧ .

(٣) العصر العباسي الاول ١٩٩ .

(٤) فن التقطيع الشعري ٢٠٥ .

(٥) فصول في الأدب الأندلسي ، ١٣٣ .

(٦) الاسلام والحضارة ٢٢٠ .

(٧) تنظر آراؤهم في فصول في الادب الاندلسي ١٣٣ .

(٨) موشحات مغربية ٥١ .

(٩) الادب الاندلسي ـ ١٥٢

(١٠) ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ، ٨٢ .

(١١) موشحات مغربية ٥٠ . كذلك ينظر مقال الدكتور الطاهر احمد مكي ، العلاقة بين الشعر الاندلسي وشعر التروبادور مجلة آفاق عربية ، بغداد ص ٢٧ العدد ٦ شباط ١٩٨٢ تأثير الموشحات في التروبادور د . عبدالاله ميسوم الشركة الوطنية للنشر ـ الجزائر ١٩٨١ .

أما الدكتور عبد الهادي زاهر . فينفي أن تكون صلة بين اللونين الادبيين ،[1] وقد تناول الدكتور الطاهر احمد مكي هذه القضية كذلك في بحث مفصل .

ومن حجج هؤلاء اختلاف الموشح في بنائه ، وأوزانه عن فنون الشعر العربي المشرقية . وابتكار الاندلسيين له دون المشارقة . وقد اعتمد هؤلاء في تعزيز رأيهم على الخرجات الاعجمية . التي اكتشفت في كتاب ( عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس )[2] وكتبت بحوث ودراسات كثيرة حول الخرجة .

ومن الباحثين . المستشرق الاسباني ( ميليكروسا ) المتخصص في الدراسات العبرية الذي رأى في الموشحات أثراً من آثار الأغاني والأناشيد الدينية . مثل ( البزمون ) وكان يرددها اليهود المعايشون للمسلمين .[3] وهو رأى يحتاج الى نصوص تعززه .

وممن قال بالأصل الأندلسي للموشح المستشرق الانكليزي ( جب ) .[4]

وقد تناول الدكتور هيكل جملة العوامل التي أدت الى نشأة الموشح ، وأجملها في اثنتين :

١ / **العوامل الاجتماعية** : وهي تتمثل فيما طرأ على المجتمع الاندلسي من تطور في الحياة الاقتصادية والثقافية وما بلغته الاندلس من الرفاه والترف وسعة العيش مما أتاح لهم الاقبال على اللهو والتفنن في اساليبه وطرقه .

٢ / **العوامل الفنية** : وهي ثمرة للتطور الذي حصل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية مما دعا الناس الى الالتفات الى الحياة الفنية بتشجيع الغناء والمغنين واغداق الأموال عليهم وكان من عوامله الاساسية . دخول زرياب الى الاندلس ، وما اقترن به من أثر كبير في المجتمع الاندلسي . على نحو ما فصله المقري في نفحه ، وقد تفنن زرياب في انواع الأطعمة . وطريقة اعدادها . وكان على نصيب وافر بآداب المجالسة . وطيب المحادثة . وضروب الظرف وفنون الأدب . ما لم يجده أحد من أهل صناعته حتى أن الاندلسيين لقبوه : ( معلم الناس المروءة ) لما علمهم من اللطف . والرقة . وارهاف الذوق .[5] هذا فضلاً عن جهوده المعروفة . في مجال

---

( ١ ) صلة الموشحات والازجال بشعر التروبادور ، ٩ ( ط مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٧ ) .

( ٢ ) فصول في الادب الاندلسي ١٢٤ .

( ٣ ) الادب الاندلسي ١٥٢ .

( ٤ ) ينظر موشحات مغربية ٥٢ .

( ٥ ) النفح ٢ / ١٢٠ .

الغناء والموسيقى ، حيث أسس أول معهد فني فيهما ، وأرسى له تقاليده وكان أول تلامذة معهده ابناؤه العشرة .[1]

واصبحت الحاجة ماسة ـ كما يرى الدكتور هيكل ـ الى لون من الشعر جديد يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف الحانهما . فكانت الموشحات .[2] وفيها جانبان يؤكدان نسبتها الى الاندلس هما :

جانب موسيقي يتمثل في تنويع الوزن والقافية بشيوع الموسيقى والغناء .
وجانب لغوي يتمثل بالثنائية اللغوية المسببة عن الثنائية العنصرية وهي ظاهرة آثارها في الأندلس عميقة في مجالات أخرى غير الموشحات .

فالموشحات ثمرة من ثمار الاندلس اليانعة ، تأثرت ـ من حيث بناء القصيدة واوزانها ـ بـ المحاولات المشرقية القديمة التي خرجت على الاوزان المألوفة . أما في مضمونها فهي ابنة شرعية لبيئة الاندلس الجديد ..

ويعزز الرأي القائل بأندلسية الموشح ، بل يؤكده ، ما أوردته مصادرنا القديمة التي تحدثت عن أولية الموشحات ، حيث نصت على أنها نشأت بالأندلس . فعرفت به ، وعرف بها ، وقد تقدم آنفاً آراء عدد منهم ، وممن نص على ذلك ابو محمد الحجاري ـ وهو أقدمهم ـ وابن بسام الشنتريني ( ت ٥٤٢ هـ ) وابن دحية ( ت ٦٣٣ هـ ) ، وابن سعيد الاندلسي ( ٦٨٥ هـ ) .

وخلاصة القول في أمر نشأة الموشحات ـ كما يرى الدكتور حكمة الأوسي ـ أن الرأي لم يستقر بعد على شيء قاطع جازم في ذلك ، وأن لكل من الرأيين المتعارضين ، حججه القوية ، وأدلته الناصعة ، ولا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر ، أو القطع بصحته وفساد الثاني ما لم تتوفر لدينا نصوص جديدة واضحة .

---

( ١ ) نفسه ٢ / ١٢٩ .

( ٢ ) الادب الاندلسي ( هيكل ) ، ١٤٨ ، ومن الباحثين المحدثين مقداد رحيم ، الذي ينفي الصلة بين الموشحات والغناء ، على أساس أن الأدوار الأولى للموشح لم تكن شديدة الصلة بالغناء ، لا سيما وأن أوزان التقسيم الأخير منه غير عربية ، وأن الكتب القديمة لم تشر الى هذه الصلة بين الغناء والموشح ـ ( نظرية نشأة الموشحات ص ٢٠ وما بعدها ) وفي دراسة الدكتور سيد غازي من النصوص القديمة ، ما يعزز الصلة بين الغناء والموشح ( في اصول التوشيح ص ٤٢ ) .

وإن بَدا أنّ الطابع الغالب على كل من الموشحة والزجل يوحي بأنهما ثمرة فريدة للامتزاج بين الثقافتين الاسبانية والعربية .[١]

## خامساً : بناء الموشحة :

لاحظ مؤرخو الموشحات القدماء اختلاف بناء الموشحة عن القصيدة التقليدية ، فحاولوا على ضوء ذلك تحديد أبعاد الموشحات في بنائها ، اوزانها وقوافيها ، وابن سناء الملك هو ـ بغير منازع ـ أول من قنن للموشح بعد أن درس طرائقه وأصوله .[٢] وهو وان كان له فضل الرّيادة ، لم يضبط عروض التوشيح ، على أسس علمية دقيقة ، كما فعل الخليل في اوزان الشعر العربي ، واختلط عليه الأمر في تحديد أنماط البنية .[٣] وقد سبقت محاولة ابن سناء الملك محاولات أخريات ، في التنبيه الى اختلاف بناء الموشحة عن قصائد الشعر العربي ، ولكنها جاءت سريعة غير متريثة ، حيث أشار ابن بسام في الذخيرة الى أوزان الموشحات المخالفة لأعاريض أشعار العرب .[٤] وأما ابن سناء فأنه حاول ضبط أوزانها ، فاعترف بعدم تمكنه « فعزّ ذلك وأعوز »[٥] وفهم عدد من الباحثين من كلامه أن أوزان الموشحات تختلف عن أوزان أشعار العرب ،[٦] لكن الدكتور احسان عباس نبّه الى أنه ليس المراد بقول ابن بسام ، مجيء الموشحات على أوزان غير عربية ، بل المقصود خروجها على الأعاريض المألوفة الى المهملة . فالايقاع فيها عربي خالص ، ولكننا لا نستطيع أن ننسبها الى بحور الخليل المعروفة ، اذ هي مشتقة من بحوره ، دون ان تجد « خليلاً » آخر ليمنحها أسماءها .[٧]

ولعل السبب في عدم مجيء محاولات في ضبط اوزان وقوافي الموشحات ، ما ذكره الدكتور عباس الجراري ، ان هذا الفن ، وجد ليخرج على أوزان الخليل « ولو فعلوا ، لأطروه في قوالب جاهزة تعيدهم الى نفس حلقة الرتابة التي انطلقوا منها رافضين »[٨]

---

( ١ ) فصول في الأدب الأندلسي ص ١٢٨ .
( ٢ ) في اصول التوشيح ٢٩ .
( ٣ ) ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ١٢ .
( ٤ ) الذخيرة ١ / ١ / ٤٧٠ .
( ٥ ) دار الطراز ٤٧ .
( ٦ ) ينظر على سبيل المثال الموشحات الاندلسية ، عنانى ص ٤٠١ .
( ٧ ) تأريخ الادب الاندلسي ٢ / ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
( ٨ ) موشحات مغربية ص ٢٩ .

اما وقد انتهت هذه المحاولات واستقرت ضوابط هذا الفن . فإن تقعيدها أمرٌ ينسجم مع قواعد البحث العلمي لاسيما في إطار الأدب الأندلسي ـ الذي أصبح أثراً بعد عين .

ومن المحاولات في هذا المجال محاولة المستشرق الالماني هارتمان الذي أرجع تلك الاوزان الى ١٤٦ وزناً أو بحراً مشتقة من بحور الشعر العربي الستة عشر[١]، ولم نطلع على تفصيلات عمله ، وكيفية اشتقاق هذا العدد الضخم .

ويرى الدكتور سيد غازي . أن اوزان الموشحات لم تقتصر على مقاييس الخليل . التي ضبط بها أوزان الشعر العربي . بل تعدتها الى مقاييس جديدة . ولّدها الوشّاحون . وما من وزن من هذه الاوزان « المبتكرة » الا وهو « مولّد » من أوزان الخليل . لا كما ذهب ابن سناء الملك[٢]. ويعود الدكتور غازي الى تخريج أوزان الموشحات . حتى تلك التي زعم ابن سناء الملك . انها خارجة على الاوزان .. وينفي ان تكون خاضعة للعروض الاسباني .. على الرغم من ورود جزء من أغنية شعبية . بلغتها العامية . والاعجمية . في ختام الموشحة . وهو ما يعرف بالمركز أو الخرجة ..

ومحاولة الدكتور غازي فذة في ضبط الأوزان . حيث طبّقها على جميع الموشحات الاندلسية التي جمعها في « ديوان الموشحات الاندلسية » وهي تقارب خمسمائة موشحة . والاوزان الخارجة على البحور الخليلية . تضطره الى استخدام اجزاء التفعيلة . ومقلوب البحور .. . لكن المحاولة لا تخلو من تعسف في تخريج بعض البحور كالذي حصل في بعض الموشحات[٣] .

---

(١) في الادب الأندلسي ـ جودة الركابي ٢٠٢

(٢) في اصول التوشيح ٤٢ .

(٣) نسوق على سبيل المثال موشحتين لابن خاتمة ( ٢ / ٤٤٤ ) حيث خرّج البحر على أنه من الرجز وكتب التفعيلات :

الدور : مستفعلن فعولن مفعولن فعولاتن

القفل : مستفعلن فعولن مفعولن فعولاتن

تفعلن عولان مفعولن فعولاتن

وعقب بقوله : او من المقتضب يحذف أوله وآخره ..

وفي موشحة أخرى ( ٢ / ٤٣٢ ) خرّج البحر على النحو التالي ..

الدور : مفعولن . مستفعلن فعلن

القفل : مفعولان مستفعلن فعلان

مفعولان مستفعلن فعلان على فعلن

ثم عقب بقوله : ام من الرجز او السريع .

والمحاولة الثانية لمقداد عبد الرحيم خضر . جاءت بعد سبع سنوات من محاولة الدكتور غازي ، في منهج يختلف عن منهج سابقه . فقد حاول فيها أن يضع أوزاناً ( شبه منضبطة ) من أوزان الخليل . لكن محاولته لم تقدم لنا ضوابط نهائية . ينطوي تحتها ما بين أيدينا من موشحات ... ومنهجه في ذلك يناظر منهج ابن سناء في نظرته الى أوزان الموشحات[1] . وقد أشار الى ظاهرة التنوع في أوزان الأدوار والأفعال بين اكثر من بحر . ولذلك قسّم أوزان الموشحات على ثلاثة أنواع[2] :

**النوع الأول** : ما جاء على أوزان الشعر العربي المألوفة . وهو أربعة انماط ،
أ ـ ما جاءت أقفاله وأدواره على وزن واحد .
ب ـ ما جاءت أقفاله وأدواره على وزنين .
جـ ـ ما جاءت أقفاله على اكثر من وزن ، وأدواره على وزن واحد .
د ـ ما جاءت أقفاله على اكثر من وزنين ، وأدواره على وزنين .

**النوع الثاني** : ما جاء على أوزان غير مألوفة . وفيه نوعان ،
أ ـ ما كانت أقفاله وأدواره ، على وزن واحد .
ب ـ ما كانت أدواره على وزن واحد ، وأقفاله على وزنين .

**النوع الثالث** : هو المتنوع الاوزان . ويأتي على قسمين ،
أ ـ أقفاله متنوعة الأوزان وأدواره على وزن واحد .
ب ـ ما تنوعت أوزان أقفاله وأدواره معاً .
وقد ساق أمثلة على الانواع التي ذكرها ..

واما بناء الموشحة . فقد اعتمد الدكتور غازي في توضيحه على مصطلحات ، يصف فيها اجزاء القفل والدور مثل المشطر المجرد ، وهو الذي يبنى الجزء فيه ، على شطر واحد ، وتأتي فقر أشطاره ، بقواف داخلية ، تلتزم في القفل او في البيت .

---

(١) في دار الطراز اشارة الى تنوع الاوزان في الموشحات ، ما جاء على أوزان العرب ، وما لا وزن له فيها ص ٤٤ وقسم أقفاله على وزن أبياته ( الادوار ) ص ٤٧ ، وآخر خالفت أقفاله أبياته ص ٤٨ ، وقسم لأبياته وزن يدركه السمع ولا يحتاج الى ميزان العروض وآخر مضطرب الوزن ص ٤٩ ، وقسم يستقل التلحين به ، وهو اكثرها ، وآخر لا يحتمله التلحين ، ولا يمشى به ص ٥٠ .

(٢) مجلة المورد ١٥ / ١ / بغداد ١٩٨٦ ص ٧٣ وما بعدها

وأوجدوا بذلك فواصل موسيقية ، تثرى البيت بالايقاع والنغم[١] .. وجاء البيت عند بعضهم « مضفراً » بفقرة أو فقرتين . وأتوا به « مذيلاً » او قدموا عليه فقرة فأصبح « مرؤوساً » او قدموا عليه فقرة ، واعقبوه بأخرى فأتوا به « مجنحاً » وجعلوه مذيلاً او مرؤوساً ، في القفل وحده ، او البيت كله ، ولم يأتوا به مجنحاً ، الا في القفل خاصة ، واقتصروا على تضفير القفل ، اول الأمر ، فكانوا يأتون بالغصن مجزوءاً ، وبالسمط مضفراً ، ثم انتقل الى الغصن كذلك .. وحذفوا من القفل فقرة ، واتوا به « أعرج » تنويعاً لايقاعه[٢].

وعلى هذا النمط يفصل الدكتور غازي اجزاء الموشحة ، ويستخدم هذه المصطلحات في وصفها ، ويبدو أن لها علاقة بالبحور المستخدمة في تلك الموشحات ، والمجال التطبيقي لهذا الحشد من المصطلحات ، في ديوان الموشحات الاندلسية ، ومن تلك الاوصاف « المجرد المرصع الدور ، والقفل ذو السمطين »[٣]

وقوله[٤] : ( المرؤوس القفل ذو السمطين الاعرج )

وحين يصف موشحة « ايها الساقي »[٥] يقول : ( مربع مشطر ، مزدوج القفل ، ساذج ) وفي موشحة ابن باجة يقول[٦] : ( مسدس مشطر مجرد ، ساذج ) .

ومحاولة مقداد رحيم خضر التي قصد فيها ضبط بنية الموشحة ، تنهج نهجاً آخر هو الاعتماد على تتبع قوافي الموشحات ، بتقديم اشكال تخطيطية لها ، يدرس الاقفال اولاً ، ثم الادوار ، وقرر أن ما تألف عن قسمين جاء على شكلين ، وما تألف من ثلاثة أقسمة جاء على أربعة أشكال ، وما تألف من أربعة أقسمة ، جاء على ثمانية اشكال ، وهكذا كما يتبين في الجدول رقم ( ١ ) ثم عاد فدرس قوافي الادوار ، فرأى أن ما كانت فقراته واحدة ، جاءت على شكلين في ثلاثة أقسمة وأربعة ، وما كانت فقراته اثنتان ، جاءت على خمسة اشكال ، وعدد من الأقسمة ، كما يتبين في الجدول رقم ( ٢ ) ، ولا شك أن تقسيماته تركزت بشكل اساس على قافية الموشحات ، فيما تناولت نعوت واوصاف الدكتور غازي ، بنية القصيدة وقوافيها كذلك ...

---

( ١ ) في اصول التوشيح ٥٨ ـ ٦٣ .
( ٢ ) نفسه ٦٨
( ٣ ) نفسه ١٥٨
( ٤ ) نفسه ١٤٢
( ٥ ) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٦
( ٦ ) نفسه ١ / ٤٠٦

## قوافي الاقفال

جدول رقم ( ١ )

| عدد أقسام القفل | اشكالها |
|---|---|
| ٢ | ٢ |
| ٣ | ٤ |
| ٤ | ٨ |
| ٥ | ٥ |
| ٦ | ٦ |
| ٧ | ١ |
| ٨ | ٨ |

## قوافي الادوار

جدول رقم ( ٢ )

| عدد الفقرات | عدد الاشكال | عدد الاقسمة |
|---|---|---|
| ١ | ٢ | ٣ ، ٤ |
| ٢ | ٥ | ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ |
| ٣ | ٢ | ٩ |
| ٤ | صورة متعددة | ١٢ |

## سادساً : اغراضها ولغتها :

واما اغراض الموشحات . فقد تعددت وتشعبت . ولم تعد مقصورة على ما نظمت من أجله ـ في عصورها الاولى ـ حيث جاءت في موضوع الغزل بشكل رئيس . ولكن هذا الموضوع . بقي المتقدم على الموضوعات الأخرى . واذا شئنا أن نصل الى خلاصة دقيقة في هذا المجال . فإنا نجدها في فهرس الأغراض الذي جاء في آخر ديوان الموشحات الأندلسية[١] . وهي مرتبة حسب كثرتها :

١ ـ الغزل ٢ ـ المديح ٣ ـ الوصف ٤ ـ الرثاء ٥ ـ الزهد والتصوف .

ونماذج هذه الموشحات في تلك الموضوعات كثيرة في مواضيعها في الديوان .

ويرى الدكتور جودة الركابي أن الموشحات ـ في معانيها ـ لم تتضمن جِدةً او عمقاً . انما جاءت لطيفة حلوة على ابتذالها . ويستر هذه المعاني ظلاء خارجي مستمد من ضروب البيان والبديع . لا سيما ان الهدف من هذا الفن . خلق اجواء الحب واثارة عواطف الحنين وشطحات الخيال[٢] .

وقد تناول الدكتور محمد مجيد السعيد مضمون الموشحات في عصري ازدهارها ـ المرابطين والموحدين[٣] .

اما لغة الموشحات . فقد رأى بعض الباحثين ان الضَعْفَ والركاكة غلبا عليها .. لان الشاعر كان يبغي ارضاء الاذواق العامة[٤]... وهو فيما مبالغ . لان قوله هذا . يصدق في الزجل وفنون الشعر غير المعربة . ولا يصدق في الموشح . وهو من الفنون المعربة . والجانب العامي يأتي في بعض الموشحات . التي اختارت خرجتها لتكون اعجمية او بلغة عامية .. واما بقية أجزاء الموشحة فيأتي منضبطاً ضمن احكام اللغة العربية .

وينكر الدكتور السعيد على الباحثين الذين يرون في الموشحات انحداراً وانحطاطاً في اللغة . وتفككاً وسوقية في التعبير . ويلاحظ ان الموشحات ـ إبّان العصرين الذين درسهما ـ لم تكن ركيكة هزيلة[٥] . « صحيح أن ظاهرة التساهل

---

(١) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٧٣٢ وينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين ٣٩٦ ـ ٤٠٧

(٢) في الادب الأندلسي ٣٠٥

(٣) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ٤١٢ / ٤٢٢

(٤) في الادب الاندلسي ٣٠٥

(٥) الشعر في عهد المرابطين والموحدين ٤٢٤ ـ ٤٢٧

اللغوي ونثرية التعبير وسمت أسلوبها ، غير أن ذلك لا يصل الى الدرجة التي زعموها[1] »

وبعد أن استعرضنا أبرز القضايا الاساسية في الموشحات اليك هذين النصين وهما من الموشحات المشهورة ،

( ١ )

اشتهرت موشحة ابن باجة ، ابي بكر محمد بن الحسين بن الصائغ السرقسطي ( ت ٥٣٣ هـ )[2] وذاعت ، ولذلك جعل عدد من الوشّاحين من مطلعها خرجة لموشحاتهم ومنهم ابن عربي ( ت ٦٦٨ هـ ) وابن الصُباغ[3] ، وقد روى أن ابن باجة لمّا ألقى على أحدى قينات ابن تيفلويت موشحته .. طَرب .. ولما ختمها بقوله ، عقد الله راية النصر .. صاح واطرباه ! وشقّ ثيابه ، وقال ما أحسن ما بدأت به وما ختمت ، وحلف بالإيمان المغلظة ان لا يمشي الى داره الا على الذهب ، فخاف الفيلسوف سوء العاقبة ، فاحتال بان جعل ذهباً في نعله ومشى عليه[4] ، ( مسدس ، مشطر ، مجرد ، ساذج )

جرّر الذيـــــل ايّـــــما جرّ وصـل الـشكر منـك بالـشكر

( ٢ )

ذاك ضوء الصباح قد لاحا
ونـــسـيـــم الرياض قد فاحا
لا تَقدْ في الظلام مصباحا
خلّ عنه وشـــعـــشـــع الرّاحا

حيث تنهلّ أدمعُ القطر وترى الروض باسم الزّهر

---

( ١ ) نفسه ٤١٢

( ٢ ) تنظر ترجمته في قلائد العقيان ٢٤٦ ، المغرب ٢ / ١١٩ ، وفيات الاعيان ٤ / ٥٦ الوافي بالوفيات ٢ / ٢٤٠ ، مقدمة ابن خلدون ٤ / ١٣٣٠ ، جذوة الاقتباس ١٠٧ ، أزهار الرياض ٢ / ٢٠٩ ، فن التوشيح ١٤٥

( ٣ ) ابن الصباغ ابو عبدالله محمد بن احمد الصباغ تنظر ترجمته في ازهار الرياض ٢ / ٢٢٠

( ٤ ) ديوان الموشحات الاندلسية ١ / ٤٠٦

( ٣ )

نظمت جوهر العلا سلكا
كن ملكٍ يزين الملكا
مابرا الله مثله ملكا
لاح بدراً وفاح لي مسكا

كالحيا ، كالامان كالدهر  كعليٍ في الحرب أو عمرو

( ٥ )

كلما لاح وهو ملتثم
كهلال تحفّه ديم
خافقاً فوق رأسه علم
غنّت العرب فيه والعجم

عقد الله راية النصر  لامير العلا أبي بكر

« ٢ »

وقال ابن زمرك[١] في موشحته[٢] :

نسيم غرناطة عليلُ  لكنه يبريء العليلَ
وروضها زهره بليل  ورشفه ينقع الغليلَ

( ٢ )

عقيلة تاجها السبيكة  تُطل بالمرتب المنيف
كأنها فوقه مليكة  كرسيها جنة العريف
تطبع عن عسجد سبيكة  شموسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجليل  يامنظراً كله جميل
قلبي الى حسنه يميل  وقبلنا قد صبا جميل

---

(١) ابن زمرك ابو عبدالله محمد بن يوسف بن زمرك ( ت بعد ٧٩٢ هـ ) تنظر ترجمته في الكتيبة الكامنة ٢٨٢ الدرر الكامنة ٤ / ٤١٢ ، نثير فرائد الجمان ٢٢٦ ، التعريف ٢٦٢ ، جذوة الاقتباس ٤ / ٩٨ النفح ٧ / ١٤٥ ـ ٢٦٦ ، ٢٧٩ ، فن التوشيح ١٤٥ .

(٢) ديوان الموشحات الاندلسية ٢ / ٥٠٢ ـ ٥٠٦

(٢)

وزاد للحسن فيك حسناً ... محمد الحمد والسماح
جدد للفخر فيك مغنى ... في طالع اليمن والنجاح
تدعى رشاداً وفيك معنى ... يخصك الفأل بافتتاح
فالنصر والسعد لا يزول ... لأنه ثابت اصيل
سعد وانصاره قبيل ... آباؤه عترة الرسول

(٧)

يا سرحة في الحمى ظليلة ... كم نلتُ في ظلك المنى
روضك الله من خميلة ... يجنى بها أطيب الجَنى
وبرقها صادق المخيلة ... ما زال بالغيث مُخسنا
أنجز لي وعدك القبول ... فلم أقل مثلَ من يقول
يا سَرحة الحيّ يا مطول ... شرح الذي بيننا يطول

# المبحث الثاني

# المعارضات

## المعارضة في الشعر الاندلسي

هل اختلف الشعر الأندلسي عن شقيقه المشرقي ؟ وما اوجه هذا الاختلاف ؟

هذان سؤالان قديمان جديدان شغلا كثيراً من النقاد القدماء والمحدثين ومن خلال هذين السؤالين نستطيع أن نفهم ونعلل ظاهرة المعارضة في الشعر الأندلسي . ( لقد يخطىء من يزعم أن شعر الاندلسيين يغيب في سواد غيره من الأقاليم كالعراق والشام والحجاز . بحيث يشتبه النسيج وتلتحم الديباجة . وذلك رغم من لا يعرف الشعر الا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره[1] ) .

فما المقصود بالمعارضة ؟ واين تقع من التقليد او الابداع ؟

لعل افضل تحديد لمفهومها ما ذكره الاستاذ احمد الشايب ، « والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما . من أي بحر وقافية . فيأتي شاعرٌ آخر . فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني . وصياغتها الممتازة . فيقول قصيدة في بحر الأولى . وقافيتها . وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير او كثير . حريصاً على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية ويفوقه . فيأتي بمعان أو صور بزاء الأولى . تبلغها في الجمال الفني . او تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل . وجمال التمثيل . او فتح آفاق جديدة في باب المعارضة[2] » . ولا علاقة بين اتفاق الشاعرين في العصر أو اختلافهما فيه ..

ونلمح الصلة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي حين نعلم أن المعارضة في اللغة هي المقابلة . يقال ، فلان يعارضني اي يباريني . وعارضته في السير اذا سرت حيالهُ وحاذيته . وعارضته بمثل ما صنع اي اتيت اليه بمثل ما أتى . وفعلت مثل ما فعل[3] . ومنه اشتقت المعارضة وهذا هو القياس . كأن عرض الشيء الذي يفعله مثل عرض الشيء الذي أتاه[4] .

( ١ ) تاريخ آداب العرب الرافعي ٢ / ٢٩٦

( ٢ ) تاريخ النقائض في الشعر العربي القديم ص ٧ ( ط السعادة بمصر ١٩٥٨ )

( ٣ ) اللسان مادة عرض ، المحيط ، عرض

( ٤ ) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤ / ٣٧٢

ويروق لبعض الباحثين ان يوازن بينها وبين المناقضة ، ليبين أوجه اللقاء والخلاف . وهي بينة واضحة . فالاولى تدل على الاعجاب . وتعرب عن الوفاء وتتصل بالبراعة الفنية التي تصل الى درجة التحدي . واما المناقضة فتدل على الاختلاف بين الشاعرين وعدم اتفاقهما من حيث الافكار بشكل اساس ، على نحو ما يبينه هذا الحوار بين يوسف بن هارون المعروف بالرمادي وشيخه يحيى بن هذيل ، حين يسأله التلميذ عن شعره فينشده ابياتاً منها ،

ومُرنّــه والدّجن يــنــســج فوقــها بُردين من حَلَكٍ ونَوء باكي
مالت على طي الجناح وانما جعلت اريكتها قضيب اراكِ

فيعجب بها . وينظم شعراً على نهجها ومنها :

أحــمامة فوق الاراكة بــيــنــي بحياة من ابكاك . ما ابكاك ؟
اما انا فبكيت من حرق الهوى وفراق من اهوى . أأنت كذاكِ ؟

فلما سمعها ابن هذيل قال له : اعارضتني ؟ فقال : لا . انما ناقضتك ! فقال له ابن هذيل ، اذهب فقد اخرجتك من الكتب[1]

ان مجرد قول الشاعر قصيدة في بحر قصيدة أخرى وقافيتها وموضوعها . لا يدل على تقليد مطلق للشاعر السابق على نحو ما ذهب عدد من الدارسين منهم الدكتور عمر فروخ والدكتور بدير متولي حميد[2] والصواب انها مظهر من مظاهر الابداع وصورة من صور التفوق . لاسيما في مراحلها الأخيرة . فقد يبدو الشاعر مقلداً وتكون المعارضة مظهراً من مظاهر هذا التقليد لكنه لن يجرؤ على معارضة كبار الشعراء الا بعد أن تستقوي لديه ملكة الشعر فيحاول مجاراة أعلام الشعراء ومظاهاتهم . وتنتهي به هذه النزعة وتستوي على ساقها . حين يدرك مرتبة أولئك الشعراء . الذين بدأ معجباً بهم . ومن هنا نستطيع أن نقرر بأن المعارضة حالة تتجاوز التقليد الى الابداع . والمتابعة الى الابتكار . والشاعر يمزج فيها بين القديم والجديد .. وهي وجه من وجوه النقد الفطري ـ كما يرى الدكتور عمر فروخ[3] ـ أليست هي مظهراً من مظاهر الاعجاب والحكم لشاعر بأنه أحسن ؟

---

( ١ ) نثار الازهار ٨٢ وينظر تاريخ الادب الاندلسي ١ / ٢١٤
( ٢ ) تاريخ الادب العربي ٤ / ٧٨ . قضايا اندلسية ٥٨ .
( ٣ ) تاريخ الادب العربي ٤ / ٧٨

ولدينا أمثلة كثيرة على الشعراء الذين وقفت بهم شجاعتهم دون المعارضة او انهم عارضوا واخفقوا على نحو ما حصل حين طلب المنصور بن ابي عامر من صاعد البغدادي ( ت ٤١٧ ) أن يعارض ارتجالاً قصيدة ابي نواس التي مطلعها :

اجارة بيتينا ابوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

فلم يجرؤ واعتذر ثم انه جاء من الغد بقصيدته التي مطلعها :

جذال الشرى اني بكن بصير ... طوتكن عني خلسة وقتير

يعلق ابن بسام على الحادث فيرى ان المنصور تعمد ذلك وحمله على غرر وعرضه لسوء الخبر لانه كان دعياً ومتمادياً في لجاجته [١].

وقصيدة ابن دراج في معارضتها مشهورة ، ومطلعها :

دعي عزمات المستضام تسير ... فتنجد في عرض الفلا وتغور

ورأى ابن بسام الشنتريني الناقد في عدد من الشعراء اخفاقاً في معارضاتهم حينما ساق خبر ابي عبدالله بن شرف الذي سأل المأمون بن ذي النون ان يقترح عليه اي قصيدة شاء من شعر ابي الطيب حتى يعارضه بقصيدة تنسي اسمه وتعفي رسمه فتثاقل ابي ذي النون اشفاقاً من فضيحته حتى الح عليه واحرجه فقال له دونك قوله : « لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي » يقول ابن بسام فخلا بها ابن شرف أياماً فوجد مركبها وعراً .. وارهق نفسه في امرها عسراً فما قام وما قعد ولا حل ولا عقد [٢].

والمعجبون بالمتنبي في الأندلس كثيرون فقد حاول ابو علي بن رشيق ان يعارضه واختار قصيدة من شعره ليست ذات شأن هي « أمن ازديارك في الدجى الرقباء » ثم صنع قصيدة بذل فيها طاقته لكنه قصر عن ان يبلغ شأوه ( وعلم أن الاحسان كنز لا يوجد بالطلب .. وصان نفسه عن أن يحدث عنه بأن تكون الهرة أحزم منه )[٣]

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٤

(٢) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٤

(٣) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٥ حول منزلة المتنبي لدى الاندلسيين ينظر بحث الدكتور محسن جمال الدين
( معالم شخصية المتنبي في الاندلس ) المورد ٦ / ٣ / ١٩٧٧

ولم تكن نظرة ابن شهيد الأندلسي ـ فيما نقله الحميدي عن كتابه حانوت عطار ـ مختلفة عن ابن بسام فقد انكر على من تولى ديوان الشعراء حيث قدم عبادة بن ماء السماء على عبدالرحمن بن ابي الفهد مع أن الأخير كان من اشعر من انبتته الاندلس حتى انه لم يكد يلقي شاعراً جاهلياً ولا اسلامياً الا عارضه وناقضه مثل الجواد اذا استولى على الأمد لا ينبي ولا يقصر.

لقد أنكر ابن بسام في ذخيرته، على بني قومه، تقليدهم لأهل المشرق التقليد الأعمى وذلك كان في مقدمة الأسباب التي دعته الى تأليف كتابه: «الا أن أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل الشَرق، يرجعون الى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على ذلك صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً»[1]

الا أن هذا الاعتراف والاقرار من ناقد غيور مثل ابن بسام جرّه الى الدّفاع عن الأندلس أنفه وكبرياء، فاخذ يتتبع محاسن أهل بلده، وعصره، غيرة عليهما ثم صاح صيحته وبأعلى صوته فقال: «وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالاحسان؟ وقد كتبت لارباب هذا الشأن.. محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتاب.. واودعت هذا الديوان.. من عجائب عملهم وغرائب نثرهم ونظمهم ماهو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة.. لأن أهل هذه الجزيرة ـ مذ كانوا ـ رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة..»[2]

لقد كانت نظرة الاستهانة الى نتاج الأندلسيين وأستضآل ما يصدر عنهم، من الاندلسيين أنفسهم، إكباراً لنتاج أهل المشرق، وصورة من صور اتصال الفرع بالشجرة الأم، حتى أن ابن حزم الاندلسي العالم الفقيه أشار الى هذه الظاهرة في مقام المباهاة بجهود الاندلسيين وتفوقهم على عدوة المغرب في رسالته المشهورة في فضائل أهل الأندلس حيث يذكر أن من امثالهم «أزهد النّاس في عالم أهله» و «لايفقد النبي حرمته الا في بلده» وكأنه يسوغ بهذين القولين ما لقيه هو وامثاله من ابناء عصره وبلده من عدم احتفاء واهتمام.

---

(١) الذخيرة ١ / ١ / ١٢

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ١٢ ـ ١٤

وظهرت هذه النظرة كذلك عند المشارقة في مقولة أحد ادبائهم وعلمائهم حين بلغه ظهور كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه فحصل عليه ثم ازرى به باقتباسه من قوله تعالى ، « بضاعتنا ردت الينا » وهو موقف ينم عن ولع المشارقة . وشدة اهتمامهم بتتبع أخبار الأندلس لمعرفة مايأتي منهم . ومدى السبق الذي قد يحققونه .

وقد وقف ابو عبدالله الحميدي ( ت ٤٨٨ هـ ) موقف الحيطة والحذر ازاء هذا التتبع من المشارقة لاخبارهم حين نزل في بغداد وطلب اليه ان يضع مؤلفاً يجمع فيه ما يحضره من أخبار اهل الأندلس في الشعر واللغة والحديث فاعتذر ببعده وقلة مواده متذرعاً بسببين ،

أما أن أبخس القوم حظهم . وانقصهم فضلهم . فأتعرض للائمتهم فيما أوردت .. واما أن أوهم من رأى قلة جمعي . ونهاية مافي وسعي . أنه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد الا نزر من الاعداد .[١]

والسببان الآنفان يدلان دلالة واضحة على تحسب الحميدي وحيطته ازاء المشارقة . ونلاحظ ان عدداً من المشارقة ابدى اعجابه بنتاج الأندلسيين ولدينا على ذلك شهادات لادبائهم وشعرائهم فمن ذلك ما رواه ابن بسام عن ابي علي القالي الذي زار الاندلس وصرح باعجابه من أهل الأندلس في ذكائهم حتى انه يتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة[٢].

وكذلك ما روى عن اعجاب شاعر كبير هو المتنبي بشاعر اندلسي هو ابن عبد ربه . حيث أنشد بعض اشعاره فاعجب بها وقال ، لقد يأتيك العراق حبواً »[٣]

وفي القرن السادس الهجري يعرب ابن العماد الاصفهاني عن اعجابه هو الآخر بسلاسة شعرهم ورقته ورونقه حين يقرأ لبعض شعرائهم[٤].

وتنطوي المعارضة على بعد سياسي . لا سيما حين يكلف امير او حاكم أندلسي شاعراً بمعارضة شاعر مشرقي . فانه إن نسب لشاعره التفوق على الشاعر المشرقي . يكون قد عزز ملكه بشاعر متميز يفوق شعراء ملوك المشرق ! .

---

( ١ ) الجذوة ١ ـ ٢ وينظر تيارات النقد ٩٢

( ٢ ) الذخيرة ١ / ١ / ١٥

( ٣ ) معجم الأدباء ٤ / ٢٢٢

( ٤ ) الخريدة ٢ / ١٣٢

ويتجلى الأمر بشكل واضح حين يكون العداء مستحكماً على نحو ما نجد بين المغرب والأندلس . فقد أمر ابو تميم معد المعز لدين الله الفاطمي شاعره ( ابا الحسن علي بن محمد الايادي التونسي ) أن يعارض قصيدة ابن عبد ربه التي يستهلها بقوله :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيسها قد أنس

بعد أن أشتهر امر القصيدة .. فاستجاب لأمر الملك بقصيدته التي مطلعها[1] :

ربع لزينب قد درسْ واعتاض من نطق خرسْ

واعجاب الاندلسيين بادب المشرق ونتاجه أكد . وأشد ، لانهم كانوا يجدون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه . ومن مظاهر اعجاب الأندلسيين بالمشرق ما تجلى في صورة المعارضة في الحياة الثقافية والادبية حيث نجد ولعلهم الشديد بأتخاذ اسماء المشرق لمدنهم في الأندلس على نحو ما نقل المقري ان ابا الخطار حسام الكلبي كثر اهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم في البلاد وانزل اهل دمشق البيرة لتشابههما وسماها دمشق وانزل اهل حمص اشبيلية وسماها حمص . واهل قنسرين جيان وسماها قنسرين واهل الأردن رية ومالقة وسماها الاردن واهل فلسطين شذونة وسماها فلسطين واهل مصر تدمير وسماها مصر[2] .

ومثل ذلك نشهده في اتخاذهم اسماء الكتب والمؤلفات مماثلة لنظائرها المشرقية واحتذائهم فيها مناهج مشابهة لكتب المشارقة فمن ذلك كتاب الحدائق لابن فرج الجياني ( ت ٣٦٦ هـ ) الفه معارضاً كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني[3] ( ت ٢٩٧ هـ ) وكتاب الكبير لأبي بكر الطرطوشي ( ت ٥٢٠ هـ ) عارض به كتاب احياء علوم الدين للغزالي[4] . ولابن عبد ربه كتاب العقد الفريد حاكى فيه عيون الأخبار لابن قتيبة[5] . وكتاب ابن بسام المشهور ( الذخيرة ) تأثر في تأليفه بكتاب يتيمة الدهر للثعالبي[6] وكتاب امية بن أبي الصلت ( ت ٥٢٩ هـ )

---

( ١ ) وفيات الاعيان ١ / ١١٢ ( ط احسان عباس ) الوافي بالوفيات ٨ / ١٢

( ٢ ) الاحاطة ١ / ١٠٣ وينظر تاريخ النقد الأدبي في الاندلس ٤٢ .

( ٣ ) الذخيرة ١ / ١ / ١٣ ، الصلة ١ / ٥

( ٤ ) البغية ١٢٥ ، الاعلام للزركلي ٧ / ١٣٣

( ٥ ) ابن عبد ربه وعقده ، ٥٧

( ٦ ) الذخيرة ـ المقدمة ١ / ١ / ٣٣

( الحديقة ) قلد فيه كتاب اليتيمة كذلك . ولابن زيدون كتاب التبيين في خلفاء بني امية في الأندلس جعله على منزع التعيين في خلفاء المشرق للمسعودي[١] . ولابي عبدالله بن أبي الخصال كتاب المنهج عارض به كتاب مبهج الثعالبي[٢] وكذلك عارض ابا العلاء في كتاب ملقى السبيل[٣] . ولعثمان بن ربيعة القرطبي ( ت ٣١٠ هـ ) طبقات الشعراء بالاندلس وهو يشبه طبقات ابن سلام ولمحمد بن هشام المرواني اخبار الشعراء بالاندلس يقوم على فكرة الطبقات نفسها ولعبدالله بن محمد بن مغيث شعر الخلفاء من بني أمية وهو يشبه كتاب الاوراق للصولي وليحيى بن الحدج المرسي كتاب الاغاني الاندلسية وهو كتاب يشبه كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني . ويطلب الحكم المستنصر من ابن الصفار أن يؤلف كتاباً في اشعار خلفاء الامويين بالمشرق والاندلس مثل كتاب الصولي في اخبار خلفاء بني عباس . ولابن عبدالغفور الكلاعي[٤] كتب عارض فيها ابا العلاء المعري منها في السلطانيات والمقامات والساجعة والغربيب . وثمرة الالباب وملقى السبيل وفيها يعارض كتاب السجع السلطاني . والصاهل والشاحج وسقط الزند وغيرها من كتب المعري كما تقدم بنا في دراسة النثر في عهد الطوائف .

ولابن شرف القيرواني مقامات يعارض فيها البديع[٥] . كما عارض ابو حفص بن برد ابا الفضل ابن العميد في بعض رسائله الديوانية . ولابن خطاب فصل من كتابه « فصل الخطاب » في معارضة ابي الجوزي على ما سيأتينا .ولابن الخطيب كتاب التاج المحلي في مساجلة القدح المعلى سلك فيه هذا السبيل[٦] .

بل انهم شبهوا بعض ملوك الاندلس بالخلفاء العباسيين . يقول ابن حيان . « ان المعتضد كان يتخذ سيرة سميه الخليفة المعتضد بالله العباسي قدوة له . ويهتدي باخباره » ويقول ابن القطان عنه « كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي »[٧] .

وكذلك كان الشأن في اطلاقهم القاب شعراء المشرق على شعرائهم فابو الأجرب جعونة بن الصمة . وابو الخطار حسام بن ضرار لقبا بعنترة[٨] والرمادي يوسف بن

---

( ١ ) رسالة ابن سعيد في فضائل الاندلس النفح ٢ / ١٧٨ ـ ١٨٦

( ٢ ) فهرسة ابن خير ٢٨٦

( ٣ ) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١١٣

( ٤ ) نفسه ٢ / ١١٣

( ٥ ) الذخيرة ٤٥ / ١ / ١٩٦

( ٦ ) لسان الدين بن الخطيب ٢٢٨

( ٧ ) البيان المغرب ٢

( ٨ ) المغرب ١ / ١٣١

هارون ( ت ٤٠٣ هـ ) لقب بأمرىء القيس وغالب بن رباح لقب بأبي تمام . وابن زيدون وابو عبدالله بن مجبر لقبا بالبحتري[١] وحمدونة بنت زياد بالخنساء او صنوبرية المغرب[٢] وابن اللبانة بالسموءل[٣]. وابو بكر الاعمى المخزومي بشار الاندلسي[٤]. وابو الربيع سليمان بن علي عرف بكثير ومؤمن بن سعيد دعبل الأندلس[٥] والرصافي البلنسي ابن رومي المغرب وابن خفاجة صنوبري الأندلس وابن وهبون شبه بأبي نواس والمتنبي وابن عبدون شبه بالمتنبي وابن دراج القسطلي وابن هاني الأندلسي وابو طالب عبد الجبار لقبوا بمتنبي الأندلس ومروان ألطليق شبه بابن المعتز واحمد بن محمد الجياني ( تيس الجن ) شبه بأبي نواس والمعتمد وشاعره ابن عمار شبها بالرشيد وجعفر بن برمك ويحيى الغزال شبه في خمرياته بابي نواس وابو مروان الجزيري شبه بابن عبد الملك الزيات والاعمى التطيلي بمعرى الأندلس[٦] وابن مرج الكحل بالوأواء .[٧]

وقد عبر الدكتور احمد هيكل عن دواعي المعارضات ـ بشكل عام ـ ووجد أنها تتمثل في محاولة الأندلسيين التفوق على سابقيهم المشارقة .. وهم في ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التي كانت تدعوهم دائماً لتأكيد ذوويتهم ، وابراز جهود بلدهم[٨].

واذا كان الاعجاب بشاعر او بقصيدة من قصائده سبباً من الأسباب التي دعت الى المعارضة ـ على المستوى الفردي ـ فان ذيوع قصائد معينة وانتشارها واعجاب النقاد بها وارتقاء منزلتها هو الآخر من الأسباب الداعية للمعارضة ، وهو أمر شبه متواتر في القصائد المشهورة . فمن ذلك نونية ابن زيدون : « وكان شعر ابن زيدون مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء » كما يقول اوجست كور[٩]، ومن ذلك سينية ابن الأبار التي قال عنها ابن سعيد[١٠] :

---

( ١ ) الذخيرة . ترجمة ابن زيدون ، رايات المبرزين ١١١

( ٢ ) المغرب ٢ / ١٤٥

( ٣ ) المغرب ٢ / ٤١١ ، المعجب ١٦٩

( ٤ ) المغرب ١ / ٢٢٣

( ٥ ) المغرب ١ / ١٣٣

( ٦ ) الرايات ١٢٤

( ٧ ) ينظر تاريخ النقد الادبي ٤٤

( ٨ ) الادب الاندلسي ٢٥٩

( ٩ ) تاريخ الفكر الاندلسي ٨٦

( ١٠ ) اختصار القدح المعلى ص ١٩١

« وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطيء ومحروم ، واغرى الناس بحفظها ، اغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم » .

ويرى الدكتور سعد شلبي[١] ان نزعة التقليد التي أشار اليها ابن بسام وصلت بهم الى حد الشعور بالحرج من تقليدهم المشارقة وقد تجلى هذا الحرج في مظهريه ،

**اولاً :** تأليفهم الكتب للاشادة بشعرائهم كما فعل الحميري في كتابه البديع وابن بسام في الذخيرة وابن خاقان في القلائد والمطمح .

ثانياً ، تحرج الشعراء من التقليد والاقتباس من الشعراء المشارقة واتجاههم الى كبار شعراء الاندلس واتخاذهم اساتذة لهم .

اذا كانت المعارضة تلتزم الوزن والقافية فان موضوعها لا يتحدد بل يتعدد والمعارض الكفء هو الذي يتابع الشاعر المعارض في قصيدته في كل غرض وموضوع كما يتابع الفارس الفارس في نزاله في كل خطوة لا يتجاوزه ولا يبعد عنه حتى ينتصر عليه .

وتتعدد ضروب المعارضة وانماطها في الشعر الأندلسي وقد صرح ابن خفاجة باعجابه بالمتنبي في مقدمة ديوانه وحدد موضوع الاعجاب بقوله ( من لف الغزل بالحماسة ) واورد على ذلك مقطعات من شعره من مثل قوله ،

ورب لـيـالٍ بالـغـمـيـم ارقـتـهـا  لـمرضى جـفـون بالـفرات نـيـام

ومقطعات اخريات[٢]،ويعقب عليها بقوله (ولكل واحد مأخذ طريف لطيف يأخذ بمجامع النفوس ) مما يستدل معه ان معارضته ومحاكاته للمتنبي لم تكن محاكاة عمياء صماء بل انه كان يضفي على قصائده نَسغاً من روحه بحيث يتميز اسلوبه بطابعه . بل اننا نجد من انواع المعارضات عنده ما يأخذ المعنى والوزن ولا يلتزم القافية[٣]. ومن القصائد مالم يصرح به على انه يعارض فيها بل اشار الى انه يقتفي طريقة مهيار[٤] .

---

( ١ ) دراسات ادبية ٦٨ ـ ٧١

( ٢ ) ديوان ابن خفاجة ص ١٦

( ٣ ) ديوانه ص ٢٥٨

( ٤ ) ديوانه ص ١٤

ويرى الدكتور محمد نوفل ان اتفاق القصيدتين في البحر والروي والموضوع يجعل المعارضة تامة ووافية وان اي اختلاف في هذه العناصر الثلاثة يجعلها معارضة ناقصة[1].

ونلاحظ ان النقاد نظروا الى المعارضة وكانوا في ذلك بين منكر ومستحسن وقد تقدم بنا موقف ابن شهيد حين ترجم لعبد الرحمن بن ابي الفهد الذي عارض عدداً من الشعراء فاستحسن ذلك منه ووجد فيه امارة على الابداع والتفوق، لكننا نشهد طائفة اخرى من النقاد تنكر وتستهجن وتنعى على الشعراء نهجهم هذا على نحو ما يسوق خبرهم ابن خفاجة ليرد عليهم ويطالبهم بأن يأتوا بشيء يسير من هذا الأسلوب الضعيف على زعمهم، ويتردد مثل هذا الحوار بين المنكر وابن خفاجة في مواضع من ديوانه[2].

ودراسة عجلى عن المعارضات في الشعر الأندلسي لا تستطيع ان تستقريء نصوصها وتستبين اساليبها وضروبها على نحو دقيق ولكننا سنشير اشارة عامة الى ابرز انماط المعارضات لمحاولة اعطاء فكرة عن حجم هذه الظاهرة وابرز شعرائها، والمكثر منهم والمقل.

نستطيع أن نقرر أن ابرز اعلامها في القرن الرابع الهجري هو ابن عبد ربه حيث تجلت لديه هذه الظاهرة واكتملت في شواهد كثيرة وامثلة شعرية متعددة،لقد كان ينظم الابيات ثم يذيلها ببيت من القصيدة التي عارضها وترد اكثر هذه القصائد مجتمعة في آخر الجوهرة الثانية في اعاريض الشعر والقوافي، ومجموع ما يرد منها ثلاث وستون قطعة بعدد ضروب العروض التزم فيها ذكر الزحاف والعلل التي يقوم ذكرها في الجزء الأول الذي اختصر فيه فرش العروض، ليكون كتابه مكتفياً بنفسه فمن امثلة ذلك ما اورده في البحر البسيط والضرب المجزوء[3]:

ظالمتي في الهوى لا تظلمي ... وتصرمي حبل من لم يصرم
اهكذا باطلاً عاقبتني ... لا يرحم الله من لم يرحم
قتلت نفساً بلا نفس وما ... ذنب بأعظم من سفك الدم
لمثل هذا بكت عيني ولا ... للمنزل القفر وللارسم
( ماذا وقوفي على رسم عفا ... مخلولق دارس مستعجم )

---

(١) تاريخ المعارضات ١٢

(٢) الديوان ص ١٢، ١٥، ١٨.

(٣) العقد الفريد ٥ / ٤٤٩

والبيت الاخير للمرقش كما أشار الى ذلك محقق العقد ، وقد تقدم بنا نص آخر في ابيات لامية عارض فيها عدي بن زيد العبادي وذلك حين درسنا اشعاره .

وقد اشرنا في حينها الى نزعة الشاعر المستحكمة الى المعارضة وانواع ما يرد في شعره منها وخصائصها[1] .

ومن شعراء هذا القرن كذلك جهور بن ابي عبدة الذي كان شاعر عبد الرحمن الناصر الا ان اكثر اشعاره لم تصل الينا ومما اورده ابن الابار قطعة من خمسة ابيات قالها في تفضيل الورد وكأنه يرد بها على ابن الرومي ( ت ٢٨٣ هـ ) في قصيدته التي مطلعها :

خجلت خدود الورد في تفضيله خجلاً توردها عليه شاهد

وقد تركت هذه القصيدة آثاراً بعيدة في شعراء الاندلس على نحو ما اورد الحميري في كتاب البديع في وصف الربيع ، وممن عارضها ابو عثمان سعيد بن فرج الجياني ، وابو بكر بن القوطية ، وقصيدة ابن الرومي قالها مفضلاً النرجس على الورد وهي اربعة عشر بيتاً وفيها يقول[2]

شتان بين اثنين هذا موعدٌ بتسلب الدنيا ، وهذا واعدُ
للنرجس الفضل المبين وان أبى آبٍ وحاد عن الطريقة حائدُ
من فضله عند الحجاج بأنه زهر ونور وهو نبت واحدُ
يحكي مصابيح السماء وتارة يحكي مصابيح الوجوه تراصدُ
والورد ـ لو فتشت ـ فردٌ في اسمه ما في الملاح له سمي واحدُ
هذي النجوم هي التي ربُتهما بحيا السحاب كما يربى الوالدُ
اين العيون من الخدود نفاسةً ورياسةً لو لا القياس الفاسدُ ؟

اما ابيات ابن ابي عبدة فهي قائمة على الاحتجاج يحاول فيها ان يثبت للورد صفات تجعله يفضل النرجس إذ انه على الرغم من مجيئه متأخراً فهو يحدد الحياة فيبعث فيها النشاط حين تكون النواوير الاخرى ومنها النرجس مصفرةً لتموت وليست للنرجس ميزة التبشير لان المبشر به هو الاهم كما يقول في ابياته[3] :

---

( ١ ) اعلاه ابن عبد ربه ص ٨٨

( ٢ ) ديوان ابن الرومي ٢ / ٦٤٢ تحقيق د. حسين نصار ـ دار الكتب المصرية حـ ١ ـ ٦ القاهرة سنة ١٩٧٦

( ٣ ) الحلة السيراء ١ / ٢٤٧ ـ ٢٤٨ معلمح الانفس ١٨٥

خضعت نواوير الرياض لحسنه فتذللت تنقاد وهي شوارد
واذا تبدى الورد في أغصانه ذلت . فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً بطلوع صفحته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه خبرٌ عليه من النبوة شاهد
واذا تعرى الورد من أوراقه بقيت عوارفه فهن خوالد

ومن بدائه الامور أن نجد شعر الطبيعة معدوداً في موضوعات الاندلس الاصيلة التي تقترن بالبيئة اقتراناً مباشراً . اذ أن نظمهم فيه ينم عن اتجاه اصيل نتيجة للتفاعل بين الشاعر والطبيعة الاندلسية التي من خصائصها هذا الجمال المتفرد .

لكن الشعر المشرقي بقي يرفد الاندلسيين حتى في مثل هذه الموضوعات . وظل شعراء الاندلس يستلهمون تجاربهم من النماذج الجيدة في الشعر المشرقي حتى نجد قصيدة ابي تمام التي مطلعها :

رقت جواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

يعارضها ابو بكر بن نصر الكاتب . وابن قلبيل البجائي .[1]

وفي مطلع القرن الخامس الهجري يطالعنا شاعر كبير هو ابو عامر بنن شهيد الذي كان شاعراً وناثراً وناقداً . وقد دعته ثقافته الادبية الواسعة الى ان يخوض غمار هذا الميدان على نحو ما تقدم بنا حين وقفنا عند دراسة رسالته ( التوابع والزوابع )[2] والذين عارضهم كثيرون . امرؤ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم وابو تمام والبحتري وابو نواس والمتنبي وتأتي معارضاته على صورة مقطعات شعرية او قصائد ينشدها بعد ان يستمع الى شيطان ذلك الشاعر ويكتفي من هؤلاء الشعراء بمطالع قصائدهم واحياناً يورد شيئاً من أبياتهم على نحو ما فعل مع ابي نواس فمن معارضاته قصيدته التي عارض فيها امرأ القيس التي مطلعها[3] :

سمالك شوق بعد ما كان اقصرا وحلتْ سُليمى بطنَ قوٍ فعَرعَرا

---

( ١ ) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١١١ وترجمة الشاعرين في الجذوة ٣٩٤ . ٣٩٠
( ٢ ) اعلاه ص ١٨١
( ٣ ) ديوان امرىء القيس ق ( ٤ )

فيعارضه ابو عامر في قسمها الذي يفتخر فيه امرؤ القيس بنفسه وشجاعته وهي في اصلها تجاوز ستين بيتاً واما ابيات ابن شهيد فهي جزء من قصيدة لم يصل منها الا خمسة ابيات والمطلع"[1]

« شجته مغانٍ من سليمى وأدور » ثم يقول :

ومن قبة لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ريح الصبا فتحدرُ
تكلفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسرُ
ومن تحت حضني ابيض ذو سفاسق وفي الكف من عسالة الخط أسمرُ
هما صاحباي من لدن كنتُ يافعاً مقيلان من جد الفتى حين يعثر
فذا جدول في الغمد تسقى به المنى وذا غصن في الكف يحنى فيثمر

وخلاصة القول ان فكرة المعارضة لا تدل على مجرد التقليد وليس فيها ما يشير الى ضعف المستوى الفني للشاعر كما ليس فيها ما يدل على ضعف الادب الأندلسي قياساً لنظيره المشرقي صحيح ان الاندلسيين عارضوا المشارقة للاعراب عن اعجابهم لهؤلاء الشعراء وبقصائد منتخبة لهم ، لكننا وجدنا المعارضة تجري فيما بين الاندلسيين انفسهم ، كما وجدنا المشارقة هم المعارضون لقصائد الاندلسيين كذلك .

وتتردد فكرة الاتفاق بين الادبين المشرقي والاندلسي لدى كثير من الباحثين وهو اتفاق طبعي منسجم مع طبيعتيهما ، لان المنابع الفكرية والثقافية وروافدها واحدة .. ولذلك اتجهت الدراسات الى عقد موازنات بينهم وبين اهل المشرق ، وذلك ما حجب عنا روائع الاندلسيين ، فشوهت هذه الموازنات مجال اشعارهم عندما وجدنا الشبه قوياً بين الادبين .[2]

وتأخذ فكرة التقليد والتجديد بعداً واقعياً وتطبيقياً لدى احد الباحثين الذين وقفوا عند دراسة الأدب الأندلسي في فن من فنونه هو النثر حيث يرى الدكتور حازم عبدالله[3] ان الأدبين المشرقي والأندلسي كل متكامل مكون من اجزاء لا يمكن فصلها الا بما يمتاز به كل جزء في ذاته من غير اخلال بالقواعد لأمور عديدة :

---

(١) ديوانه ق ٢٤
(٢) دراسات ادبية ٧١
(٣) النثر الاندلسي ٥٢٧

١ ـ ان الادبين مكتوبان بلغة واحدة هي اللغة العربية ...
٢ ـ ان ثقافة الادباء الاندلسيين هي ثقافة الادباء المشارقة نفسها، قد أخذت الطائفتان من معين واحد ، وسارت على مثل وقواعد متفقة موحدة .
٣ ـ الصلة بين المشرق والاندلس كانت قوية متينة ودائمة مستمرة وبخاصة على الصعيد الثقافي والعلمي حيث كانت افواج العلماء والادباء تروح وتغدو من الاندلس الى المشرق او من المشرق الى الاندلس والمؤلفات كذلك .
٤ ـ وجودهم في بلد بعيد عن المشرق كان يحدوهم الى التطلع الى اخوانهم ويشدهم الى التمسك بمثلهم وافكارهم وعقائدهم كما يشدهم الى اثارهم في شتى الوان المعرفة .
٥ ـ الشبه الكبير في مظاهر البيئة الأندلسية بمظاهر البيئة العربية .

هذه الامور جعلت الأندلسيين معنيين باهل المشرق وما يصدر عنهم كما كان من الطبعي ان يتشابه الادباء الاندلسيون في آثارهم بآثار اخوانهم المشارقة .

من هنا يخلص الدكتور حازم الى القول بأن فكرة التقليد لا مكان لها في العلاقة بين الأدبين كما ان فكرة التقليد لم ترد على اذهان الباحثين بين مصر والعراق والشام والحجاز او اي اقليم عربي واقليم عربي آخر .
وان هناك اموراً امتازت بها الاندلس عن المشرق مع اتفاق اللغة والعادات والعقيدة وغيرها منها :

١ ـ البيئة الاندلسية التي التقت مع المشرقية ، ولكنها زادت عليها وأربت في صفاتها ومظاهرها بما احتوته من جمال الطبيعة الدائم ..
٢ ـ العادات الاندلسية التي انطلقت من العادات العربية الاصيلة لكنها افادت من بعض العادات المحلية التي كان عليها اهل البلاد الاصليون .
٣ ـ الامتزاج الذي حصل بين العرب وغيرهم من الأقوام .

ومن الدراسات الحديثة كتاب الدكتور محمد محمود قاسم نوفل[1] الذي كرسه لدراسة المعارضات في الشعر العربي بشكل عام وقد تناول في الفصل الاول معاني ومدلولات المعارضة ، اللغوي الاصطلاحي ثم استعرض في الفصل الثاني المعارضات في العصر العباسي حتى نهاية العصر الاموي وجاء الفصل الثالث اطول فصول الكتاب حيث وقفه لدراسة المعارضات في بلاد المغرب الاسلامي وقد جعله في ثلاثة

---

(١) مؤسسة الرسالة ودار الفرقان ـ بيروت ١٩٨٣

اضرب ، المعارضات الأندلسية الداخلية ، ومعارضات الاندلسيين لشعراء المشرق ، المعارضات في الموشحات واما الفصل الرابع فقد درس المعارضات لبعض القصائد المشهورة كقصيدة بانت سعاد والبردة وكان الفصل الخامس آخر فصول الكتاب درس فيه المعارضات عند البارودي والهاشمي واحمد شوقي ومعارضات منوعة بين عدد من الشعراء المعاصرين والقدامى .

والكتاب بوجه عام يحقق الهدف المعقود عليه بتعريفنا بأكبر عدد وصل اليه الباحث من المعارضات وفصول الكتاب تناولت القضية بشكل عام وان كانت قد اهملت دراسة المعارضات المشرقية للشعر الأندلسي وهي كثيرة ، ثم تأتي دراسة أخرى انجزت حديثاً لتقف عند المعارضات الاندلسية بشقيها ، التي عارضت الشعر المشرقي وتلك التي كانت بين الاندلسيين انفسهم ، وذلك في القرنين الخامس والسادس الهجريين .[١]

وسنعرض لابرز المعارضات بضروبها الثلاثة مشيرين الى ابرز شعرائها كيما يعود الطالب اليها فيتعرف على أبعاد هذا الفن وهي :

**أ ـ معارضة الأندلسيين للمشارقة :**

١ ـ ابو ايوب سليمان بن الحكم في قصيدته التي مطلعها :

عجباً يهاب الليث حدّ سناني وأهاب لحظ فواتر الأجفان

يعارض هارون الرشيد .[٢]

٢ ـ ابو بكر بن سوار الاشبوني في قصيدته التي مطلعها

وليل كهم العاشقين قميصه ركبت دياجيه ومركبها وعر

يعارض ابا فراس الحمداني[٣]

٣ ـ صاعد الأندلس يمدح ابا حسن بن وداعة السلمي سنة ٤١٧ هـ في قصيدته التي مطلعها ،

---

(١) للباحث يونس طركي سلوم البجاري ، كلية الآداب ـ جامعة الموصل آذار ١٩٨٨ وهي رسالته للماجستير

(٢) الذخيرة ١ / ١ / ٤٧ (٣) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨١٥

ابا حسن ربيعة من سليم سـنان زان عالـية الرماح

يعارض ابن ميادة ، الرماح بن ابرد بن ثوبان ( ت ١٣٦ هـ )[١]

٤ ـ ابو جعفر بن الابار في قصيدته التي مطلعها :

غادرت عرضي عرضة وابحته وتركت نهب نفائس ونفوس

يعارض الاشتر النخعي ( ت ٣٧ هـ )[٢]

٥ ـ ابن عبد ربه في قصيدته التي مطلعها :

أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل

يعارض مسلم بن الوليد ( صريع الغواني ) ( ت ٢٠٨ هـ )[٣]

٦ ـ ابو الخطاب عمر بن أحمد بن عطيون التجيبي الطليطلي يمدح المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس في قصيدته التي مطلعها :

عاكـف جـفـنى على سـهره سيف جفن سل من حوره

يعارض ابا نواس ( ت ١٩٨ هـ )[٤]

٧ ـ ابن الخطيب في قصيدته التي مطلعها :

اطلعن من سدف الفروع شموسا ضحك الظلام لها وكان عبوسا

يعارض ابا تمام ( ت ٢٣١ هـ )[٥]

٨ ـ وفي قصيدة ابن عطيون التي مطلعها :

أمن كيوان أطلب أن اقادا لقد أعظمت شأوى ذا بعادا

يعارض ابا العلاء المعري ( ت ٤٤٩ هـ )[٦]

٩ ـ ابن اللبانة الداني في قصيدته التي مطلعها :

---

( ١ ) الذخيرة ٤ / ١ / ٥٢

( ٢ ) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٩٦

( ٣ ) ديوان ابن عبد ربه ص ١٣٢

( ٤ ) الذخيرة ٢ / ٢ / ٧٧٤

( ٥ ) نفح الطيب ٦ / ١٩٥

( ٦ ) الذخيرة ٢ / ٢ / ٧٧٧

في الطيف لو سمح الكرى تعليل  يكفي المحب من الوفاء قليل

يعارض ابا المظفر البغدادي من شعراء القرن الخامس الهجري[١]

١٠ ـ ابن الجنان الاندلسي في قصيدته التي مطلعها :

عيون النهى بين التدبر والفكر  جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

يعارض علي بن الجهم[٢] ( ت ٢٤٩ هـ )

١١ ـ ابن دراج في قصيدته التي مطلعها :

دعي عزمات المستضام تسيرُ  فتنجد في عُرض الفلا وتغورُ

يعارض أبا نواس[٣] على نحو ما سنفصل القول فيها .

١٢ ـ وفي قصيدة أبي المطرف بن عميرة ( ت ٦٥٨ ه ) التي مطلعها :

اقلوا ملامي أو فقولوا واكثروا  ملومكم عما به ليس يقصر

يعارض رائية عمر بن أبي ربيعة[٤]

١٣ ـ ابن حزم الأندلسي في قصيدته التي مطلعها :

أودك ودأ ليس فيه غضاضة  وبعض مودات الرجال سراب

يعارض فيها المتنبي وابا فراس الحمداني .[٥]

**ب ـ معارضة الاندلسيين فيما بينهم :**

١ ـ ابن اللبانة في قصيدته التي مطلعها :

خلعت عذاري في عذارٍ على خد  حكى خضرة الريحان في حمرة الورد

يعارض ابن خفاجة .[٦]

---

( ١ ) الذخيرة ٣ / ٢ / ٦٩٠

( ٢ ) ديوان ابن الجنان رقم ١٦

( ٣ ) ديوان ابن درّاج ق ٧٨

( ٤ ) أبو المطرف بن عميرة ص ٢٣١

( ٥ ) رسائل ابن حزم الاندلسي ١ / ٨٥

( ٦ ) ديوان ابن اللبانة ق ٢٠

٢ ـ وفي قصيدته التي مطلعها :

عرج بمنعرجات واديهم عسى تلقاهم نزلوا الكثيب الاوعسا

يعارض أبا الربيع بن أحمد القضاعي[١]

٣ ـ أبو مروان عبدالملك بن رزين ( ق ٥ هـ ) في قصيدته التي مطلعها :

هبوا لنا حظكم من آل لبّونِ كم تبخلون علينا بالرياحين

يعارض أبا الحسن بن سابق[٢].

٤ ـ أبو الربيع القضاعي في قصيدته التي مطلعها :

زعم العبير بأنه حاكاكِ كَذَبَ العبير وما حكى ريّاك

يعارض ادريس بن اليمان العبدري[٣]

٥ ـ ابن خفاجة في قصيدته التي مطلعها :

ياصدى الثغر مر تهنا بمر الريح والديم

يعارض ابن باجة[٤]

٦ ـ أبو بكر بن الملح في قصيدته التي مطلعها :

هل يسمع الرّبع شكوانا فيشكينا أو يرجع القول مغناه فيغنينا

يعارض ابن زيدون .[٥]

٧ ـ أبو بكر محمد بن عبدالملك بن المرخي في قصيدته التي مطلعها :

في ذمة الفضل والعلياء مرتحلٌ فارقت صبرى اذ فارقت موضعه

يعارض فيها ابن زريق البغدادي .[٦]

---

( ١ ) ديوان ابن اللبانة ق ٤٠

( ٢ ) الذخيرة ٢ / ١ / ١٢٢.

( ٣ ) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٤٥

( ٤ ) ديوان ابن خفاجة ق ٥٨

( ٥ ) الذخيرة ١ / ١ / ٣٦٠

( ٦ ) الذخيرة ٢ / ٢ / ٥٤١

٨ ـ أبو العلاء زهر الايادي ( ت ٥٢٥ هـ) في قصيده الي مطلعها :

وفاؤك ما اسنى وفضلك ما اسرى ومجدك ما أسمى وزندك ما أورى

يعارض أبا محمد بن عبدون .[١]

٩ ـ ابن سهل الاشبيلي في قصيدته الي مطلعها :

الأرض قد لبست رداءً أخضراً والطل ينثر في رباها جوهراً

يعارض ابن عمار .[٢]

١٠ ـ أبو عبدالله بن الصفار في قصيدته التي مطلعها :

نسبت شرّ عبيد العجم للعرب جهلاً بفضل رسول الله والنسب

يعارض فيها أبا زيد الفازازي .[٣]

## ج ـ معارضات المشارقة للأندلسيين

١ ـ نونية ابن زيدون :

يتحدث الدكتور الوكيل[٤] عن هذه المعارضات فيرى ان احصاءها يحتاج لضبطه الى رسالة وافية ومما يؤكد قوله ما ذكره الصفدي[٥] حيث قال : « وعارضها الناس في حياته وبعد مماته ولم يقاربوها » ولعله من الطريف أن نقرأ رأياً للصفدي[٦] يقرر فيه أن هذه النونية معارضة للبحتري في قوله .

يكادُ عَاذلنا في الحبّ يُغرينا فما لجاجكَ في لومِ المُحبينا

ومن هذه المعارضات معارضة الصفدي ( ت ٧٦٤ هـ) في زمن الشبيبة في مرثية يرثي بها بعض أصحابه ومطلعها :

---

( ١ ) الذخيرة ٢ / ١ / ٢٢٩

( ٢ ) ديوان ابن سهل رقم ٥٤

( ٣ ) البيان المغرب ـ القسم الموحدي ٢ / ٢٦٠

( ٤ ) ابن زيدون ومعارضوه ص ١٧٢ ، مجلة الكتاب عدد خاص في الذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون ١١ ـ ١٢ بغداد ١٩٧٥

( ٥ ) تمام المتون ١٢

( ٦ ) نفسه ١٢

تحكمت بعدكم أيدي النوى فينا وقد أقامت بنادينا تنادينا

وذكر المقري انه وقف على موشحة لابن الوكيل دخل فيها على اعجاز نونية ابن زيدون وفيها يقول ،

غدا منادينا محكماً فينا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

ومن القصائد الذائعة في معارضتها قصيدة احمد شوقي :

يانائح الطلح اشباه عوادينا نشجى لواديك أم تأسى لوادينا

وقد تقدمت الاشارة الى معارضة ابي بكر بن الملح لها .

## ٢ ـ ياليل الصّب :

اشتهرت قصيدة ياليل الصب لدى دارسي الأدب ونقاده بعد أن أولع بها عدد كبير من الشعراء حتى ان القصيدة طبقت في شهرتها الخافقين فأدلى الشعراء بدلوهم وفتحو من مائها العذب ، محتذين أبياتها ، ومعانيها ، والفاظها ومبانيها .

ولعل السّر في هذا الأعجاب المنقطع النظير يعود بالدرجة الأولى الى وزنها الذي بناه عليه ابو الحسن الحصري القيرواني فجاءت على بحر الخبب والقصيدة في اصلها نظمت في خطاب ابي عبد الرحمن محمد بن طاهر صاحب مرسية وهي تتألف من تسعة وتسعين بيتاً يستهلها بثلاثة وعشرين بيتاً في النسيب ، وقد قيل ان الذي دعا الحصري الى نظمها وشاية لفقها اعداء الشاعر وابلغوها ابن طاهر وقد أشار الى الوشاية مفنداً ورادأ على شانئيه .

وقد وقف عدد من الدارسين عند هذه القصائد منهم الاستاذان محمد المرزوقي والجيلاني ابن الحاج يحيى حيث ساقا في مؤلفهما عن الحصري عدداً من قصائد المعارضات للقصيدة بلغ الاربعين .[١]

ومن نماذج قصائد المعارضات التي نتوقف لأستجلاء ابعادها ، قصيدة ابن دراج القسطلي التي يعارض فيها قصيدة ابي نواس في مدح صاحب خراج مصر ، ابي نصر الخصيب بن عبد الحميد ومطلعها ،[٢]

---

(١) ابو الحسن الحصري ص ١٥٠ ـ ٢٠١ ، ٤٩٥ .

(٢) ديوان ابي نواس ٤١١ ـ ٤٢٦ ، وتنظر دراسة القصيدة في الشعر والشعراء في العصر العباسي ٢٩٨ ـ ٣٠٢ للدكتور مصطفى الشكعة ، ط ٢ دار العلم للملايين سنة ١٩٧٥ .

أجارة بيتينا ابوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

وبين ايدينا رواية الصولي في ديوانه ، حيث جاءت في اربعين بيتاً ، ويكفي دلالة على شهرة القصيدة ان المنصور بن أبي عامر ، كان يستبد به الاعجاب بها ، وهو الذي اقترح معارضتها على ابن دراج وصاعد البغدادي ، لكن صاعداً أبى أن يعارضها ارتجالاً ، اجلالاً لأبي نواس لمكانته ، ومكانة قصيدته قائلاً ،[1]

انـي لـمـسـتـحـي علا ... ك من ارتجال القول فيه
من ليس يدرك بالروية ... كـيـف يدرك بالـبديـه

ولما أصر عليه المنصور ، لم يصبح حتى نظم قصيدته التي مطلعها ،

خِدال البُرى اني بكن بصير ... طوتكن عني خلسة وقتير

جاءت قصيدة ابي نواس في اربعة أشواط ، يبدأ في شوطها الأول بمخاطبة جارة بيتيه ، البيت والنسب .. ويدعو على نفسه بعدم الستر ان لم تكن صاحبته أو زوجته .. وانه ذو نظر ثاقب يزجر عيون الناس بعينيه التي هي كنظر العقاب التي طوت القوت عن ولدها ليلتين ، وهي تقلب نظرها بحثاً وتنقيباً ،

فأن كنت لا خلماً ولا أنت زوجةً ... فلا برحت دوني عليك ستورُ
وجاورت قوماً لا تزاور بينهم ... ولا وصلَ الا أن يكون نشورُ
وانيِ لطرفِ العين بالعين زاجرٌ ... فقد كدتُ لا يخفى عليّ ضمير
كما نظرت والريح ساكنة لها ... عقنباةُ أرساغ اليدين نزور

ثم يصل الحديث ـ في الشوط الثاني من القصيدة ـ بصاحبة بيته ، التي انهمرت دموعها حين نهته عن الرحلة الشاقة لأن دون مصر اسباب الفتن كثيرة ، فعلام هذا النصب والوصب وتلك المتاعب والمشاق ، وعلى الرغم من قناعته بما قالت ، فأن امله العريض بالخصيب هو الذي حفزه على الرحيل

تقول التي من بيتها خف مركبي ... عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أما دون مصرٍ للغنى متطلبٌ ؟ ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتْها بوادِرٌ ... جرت فجرى في جريهنّ عبيرُ
ذَريني أكثرْ حاسديكِ برحلةٍ ... الى بلد فيه الخصيبُ أميرُ

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢ ـ ٢٣ ، وساق ابن بسام منها ستة ابيات وعقب بعدها بقوله ، « ... ولكن ابن ابي عامر حمله على الغرر ، وعرّضه لسوء الخبر .. » .

واما الشوط الثالث فيتجلى بالمديح المباشر لممدوحه في حوالي عشرة أبيات .. ومنها قوله :

اذا لم تزر أرضَ الخصيبِ ركابنا ... فأيّ فتى بعد الخصيب نزورُ
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدورُ
ولم ترعيني سؤدداً مثل سؤدد ... يحلّ ابو نصر به ويسيرُ
وأطرق حيّات البلادِ لحية ... خصيبية التصميم حين تسورُ

واذا كان ابو نواس قد حاور صاحبة بيته في الرحلة التي ارادت ان تثنيه عنها فأنه قبل وصفها انتقل الى المديح .. وكأنه اراد أن يستدرك ما فاته من وصف الرحلة الشاقة . وهي جزء حيوي ومهم من بناء قصيدة المديح فعاد في الشوط الرابع من القصيدة ليحدثنا عنها حديثاً متأنياً . حيث يذكر أكثر المدن التي مَروا بها متخذين الأبل وسائل في تلك الرحلة .. وبين بغداد ومصر خمسمائة وخمسون فرسخاً ..[1] ومن المدن التي مرّ بها بدأ بعقرقوف التي هي قرية من نواحي دجيل . عيني اباغ التي اضطر الى تثنيتها . وهي وادٍ وراء الانبار على طريق الفرات الى الشام . وماء النقيب . وتدمر . وجبل المدخن . وغوطة دمشق والجولان وبيسان . ونهر فطرس . وبيت المقدس . وغزة هاشم . والفرما وشقور حتى يبلغ فسطاط مصر فمما قاله يصف الابل وهي ترضخ الحجارة . وقد اصابها الوهن من مشاق السفر . فلم يبق من أجسادهن الا الشطور :

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا ... من الصبح مفتوق الأديم شهيرُ
وأصبحن بالجولان يرضخن صخره ... ولم يبق من اجرامهن شطورُ

ويأتي آخر القصيدة تماماً لشوطها الثالث وهو المديح الخالص بعد أن تقدم على وصف الرحلة سبعة أبيات معرضاً بطلب النوال :

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى ... وفي السلم يزهى منبر وسريرُ
جواد اذا الايدي قبضن عن الندى ... ومن دون عورات النساء غيورُ
واني جديرٌ ان بلغتك بالغنى ... وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ
فإن تولني منك الجميل فأهله ... والا فأنـــــي عاذر وشـــــكورُ

وأما قصيدة ابن دراج في ديوانه[2] فمطلعها :

---

(١) ابو نواس قصة حياته ١٧٢ ، عبد الرحمن صدقي ، دار الهلال . القاهرة د . ت .
(٢) ديوانه رقم ٧٨

دعـي عزمات الـمـسـتـضام تـسـير فتنجد في عرض الفلا وتغور

وقد جاءت بنفس أطول حيث فاقت قصيدة أبي نواس بأكثر من النصف فبلغت خمسة وستين بيتاً . وزيادة مبنى القصيدة وعدد الأبيات تأكيد على أظهار البراعة والتفوق على الشاعر في قصيدته المعارضة . وغزارة نتاج الشاعر معيار للتفوق لدى اقدم النقاد .[1] ولا تختلف القصيدة ـ بشكل عام ـ في بنائها حيث جاءت في اربعة اشواط بأختلاف يسير حين جعل ابو نواس مديحة للممدوح في مرحلتين لكن ابا عمر ، جعله في شوط واحد كما يتصل الشوطان الاول والثاني ـ عند ابي نواس ـ في قصيدة ابن دراج على النحو التالي :

**الشوط الأول :** مخاطبة الزوجة بالرحلة الى الممدوح ، وزجرها اياه ، وتخوفها من عواقب السفر ثم وصف مواقف الوداع في ابياته الستة عشر الأولى ومنها قوله :

تـخوفـنـي طول الـسَـفار وأنّـه لـتـقـبـيـل كفّ العامري سـفير
دعيني أرد ماء المفاوز آجناً الى حيث ماء المكرمات نميرُ
ولما تدانت للوداع وقد هفا بـصـبـرى مـنـهـا أنة وزفـيرُ

وقد تقدم بنا الحديث عن السمة الاسرية في شعر الشاعر حين دراستنا اياه آنفاً .

**اما الشوط الثاني :** فيتناول وصف الرحلة ووعثائها ، ومشاقها في اثني عشر بيتاً ومنها قوله :

وأستنشق النكباء وهي بوارحٌ وأستوطىء الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلوّنٌ وللذعر في سمع الجرىء صفير
أميرٌ على غول التنائف ماله اذا ريعَ الا المشرفيّ وزيرُ

حتى ينتهي الى حسن التخلص بقوله ،

لقد أيقنَتْ أن المنى طوع همتي وأني بعطف العامريّ جدير

حيث ينتقل الى الممدوح ويفرد فيه شطر القصيدة . ولدى الموازنة بين القصيدتين تتجلى اوجه الخلاف ، بعد أن رأينا اتفاقهما في الوزن والقافية والموضوع حيث نجد الشاعر يتوسع في معاني المدح من ناحية كما نجده يتوسع في وصف الرحلة وما يواجهه فيها .. ويتفنن في وصف مشاعر الأسرة والاولاد ازاءه ، واذا كان

---

(١) طبقات فحول الشعراء لأبن سلام ١ / ١٣٧ ، ١٤٧ .

ابو نواس قد ركّز على جانب الكرم في ممدوحه ، فأن ابن دراج جسّد في ممدوحه شخصية القائد المسلم المتكاملة الجوانب ، وفرق بينهما ، فأن الخصيب كان أميراً للخراج ، واما الحاجب المنصور فقد كان الحاكم الحقيقي ـ غير المتوج ـ للأندلس ، وذلك ما جعل قصيدة ابن دراج تفوق قصيدة ابي نواس في معانيها وصورها ، فقد جمع المنصور شطري الدين والدنيا ، وقد ورث النسب العريق كابراً عن كابر من جهة الآباء ومن جهة أمه التميمية كذلك :

وايّ فتى للدين والملك والندى ... وتصديق ظن الراغبين نزور
مجيرِ الهدى والدين من كل ملحدٍ ... وليس عليه للضلال مجير
تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلالا في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفّهم ... سحائب تهمى بالندى وبحور

وبأسهم متصل على امتداد العصور ، وترامي الدهور :

لهم بَذَل الدهر الأبي قيادَه ... وهم سكنوا الايام وهي تفورُ
وهم نصروا حزب النبوة والهدى ... وليس لها في العالمين نصيرُ

وبعد الآيات البيض التي اسبغها على ممدوحه يعود ليقرّ بأنه لن يبلغ شأو ممدوحه فيقول :

مناقبَ يعيا الوصف عن كنه قدرها ... ويرجع عنها الوهم وهو حسير
الاكلَ مدح عن مداك مقصّر ... وكل رجاء في سواك غرورُ

والملاحظ أن لغة الشاعر لم تقصر عن لغة ابي نواس ، فتمثلت فيها جزالة الالفاظ ومتانتها وبراعة الاسلوب والصياغة .. وبذلك ادرك الشاعر مرماه ، وبلغ أمنيته ، وغالب النواسي ايّ مغالبة فشق غباره ولحق به ، وربما تقدم عليه في بعض أبياته ..

# المبحث الثالث
# شعر الطبيعة

هذا ميدان آخر أخصبت فيه قرائح الأندلسيين وحلقوا في اجوائه تحليقاً ولذلك عده كثير من الدارسين مناطاً للتجديد وموضوعاً ابدعوا فيه . وامتازوا على الشعر المشرقي من حيث ان الجديد هو انعكاس للبيئة الجديدة وتفاعل معها . وهو عند الدكتور بدير متولي حميد لون من ألوان ثلاثة تفوق فيها الأندلسيون هي شعر الطبيعة وشعر الحب والشعر الحزين[١]. ولعل بلداً عربياً لم يكثر شعراؤه من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما اكثر شعراء الاندلس[٢].

وقف دراسو الشعر الأندلسي كتباً او فصولاً في دراسة هذا اللون . وخصائصه وسماته . وابرز شعرائه[٣]. إن الشخصية الأندلسية مهما كانت مرتبتها العلمية والاجتماعية كانت تذوب وتتلاشى كلما التقت بالطبيعة أو واجهتها . اذ لا تمتلك غير الاستجابة لها . ملبية دعوتها الى الاستمتاع بما تزخر به من مفاتن[٤]. فقد شغل شعر الطبيعة الناس جميعاً . خاصتهم وعامتهم . ملوكهم وسوقتهم[٥].

---

(١) قضايا اندلسية ١٢١

(٢) فصول في الشعر ونقده ١٥٨

(٣) ومن هذه الدراسات : الطبيعة في الشعر الأندلسي للدكتور جودة الركابي ، والشعر والبيئة في الاندلس للدكتور ميشال عاصي ، ومن الرسائل الجامعية ، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر للدكتور سعد شلبي القاهرة ١٩٧٨ ، والطبيعة في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين ، للباحث محمود منصور ، عمان ١٩٨٥ ، ومن الدراسات التي أفردت فيه فصولاً ، دراسة الدكتور سيد نوفل في شعر الطبيعة في الادب العربي ١٩٤٥ ، والدكتور بدير متولي حميد في قضايا اندلسية ١٩٦٤ والدكتور مصطفى الشكعة في الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ١٩٧٤ ، والدكتور عمر الدقاق في ملامح الشعر الاندلسي ١٩٧٥ ، والدكتور عبد العزيز عتيق في الأدب العربي في الأندلس ١٩٧٥ شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي ، د . سليمان العطار القاهرة ١٩٧٣ .

(٤) في الشعر الاندلسي ص ١٨ ، الدكتور عدنان صالح مصطفى دار الثقافة ـ الدوحة ١٩٨٧

(٥) قضايا اندلسية ١٤٤

ونحسب أن التأثر بالطبيعة . تجاوز الشعر والنظم الى النثر بل الى الحياة الثقافية عامة . فمن الرسائل النثرية رسالة ابي حفص بن برد الى ابي الوليد بن جهور يصف فيها خمسة اصناف من النواوير هي ، الورد ، النرجس ، البنفسج ، البهار ، الخيري النمام وغرضه تفضيل الورد من بينها وقد اطلع ابو الوليد الحميري على هذه الرسالة فأحب أن يحاكيها فجعل المجلس سبعة انواع من الزهور هي الخمسة المتقدمة وأضاف عليها الاقحوان والخيري الاصفر . وغايته تفضيل البهار على الورد ووجهها الى القاضي المعتضد بن عباد . وكلتا الرسالتين جاء في كتاب البديع[1] .

وقد شاعت القطع الشعرية والنثرية في المفاضلة بين نور ونور مما كان يجر الى النقاش والجدل . ونشأ ضرب من المعارضات في مجال ذكر نواوير الربيع على نحو ما حصل بعد أن نظم ابو الحسن على بن ابي غالب الاستجى قصيدته الضادية معارضة ستة شعراء هم ابو الوليد الحميري ، وابو بكر بن القوطية ، وابو جعفر بن الابار ، وابو بكر بن نصر ، وابو الاصبع بن عبد العزيز ، ومحمد بن عباد القاضي الذي توجهت اليه قصائد الشعراء المذكورين آنفاً[2]

ويرى الدكتور احسان عباس أن هذه المقطعات الصغيرة في وصف صنوف الازهار تمثل ( بطائق ) المهاداة بين الأصدقاء . وليس لديهم من غاية سوى طلب الصورة المبتكرة[3] . وقد وجد الدكتور حميد في هذا الاتجاه ضرباً من التخصص ، لا سيما أن الشاعر يختار زهوة واحدة لينظم فيها[4] .

ونلحظ أثر الطبيعة كذلك في العناوين التي اختاروها لكتبهم فمن ذلك : الحدائق لابن فرج الجياني ( ت ٣٦٦ هـ ) و « حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح » لابي عامر بن مسلمة[5] والحديقة لأميه بن ابي الصلت الحكيم ( ت ٥٢٩ هـ ) ، والطير ليوسف بن هارون ( ت ٤٠٣ هـ ) والبديع في وصف الربيع لابي الوليد الحميري ( ت ٤٤٠ هـ ) وزمان الربيع لأبي بكر الخشني الجياني .

---

(١) ينظر البديع ٥٢ ، ٥٨

(٢) البديع ٤٠ — ٤٩

(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٩٧

(٤) قضايا اندلسية ١٥١

(٥) الذخيرة ٢ / ١ / ١٠٦

المعروف بابن ابي ركب ( ت ٥٤٤ هـ[١] ) ، والروض المعطار في خبر الاقطار لابن عبد المنعم الحميري ( ت ٧٢٧ هـ ) ، وروضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب ( ت ٧٧٦ هـ ) ، ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وازهار الرياض في اخبار عياض ، وروضة الآس العاطرة الانفاس للمقرى ( ت ١٠٤١ هـ ) وكتاب البستان للزياني ، كما نجد شيوع تسمية الحرائر والجواري بأسماء الزهور ، ومن هذا ماروى من ان المنصور بن ابي عامر كان قد سمى بناته بأسماء الزهور . فنظم الشعراء في وصف الزهور لتبيين فضيلة كل نوع منها وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور[٢] .

عرفت الاندلس شعر الطبيعة منذ عهد مبكر ، فقد عارض ابن ابي عبده ، وزير عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ ) ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد ، وانشد ابو مروان الجزيري ( ت ٣٩٤ هـ ) قصيدته على لسان بهار[٣] العامرية ، وكان يوجه رسائله الى المنصور على السنة كرائمه بزهور رياضه[٤] .

حدق الحسان تقر لي وتغار  وتضل في صفتي النهى وتحار

ولابن عبد ربه وابن شهيد وابن حزم قصائد متفرقة في وصف الطبيعة .

وفي عصر الطوائف والمرابطين يزدهر هذا الموضوع ، ازدهار موضوعات الشعر الأخرى بحيث يؤلف نسبة عالية عند الشعراء ، فقد خرجوا على العرف السائد بالوقوف على الاطلال في مطالع القصائد واستهلوها بشعر الطبيعة . ليس هذا فحسب اذ قلما يرد وصف الطبيعة مفرداً عن موضوعات الشعر الاخرى الا لدى عدد قليل من الشعراء ، وخير من يمثل هذا الامتزاج ابن زيدون في قصيدته القافية المشهورة التي يقول فيها[٥] :

---

( ١ ) رايات المبرزين ٤٠

( ٢ ) تاريخ الادب الاندلسي ١ / ١١١

( ٣ ) الذخيرة ٤ / ١ / ٤٨

( ٤ ) يطلق الدارسون على شطر من شعر الطبيعة ، مما يعني بوصف النور او الزهر تسمية « النوريات » ولغزارة ما كتب في هذا اللون ، كتبت دراسات عنه منها رسالة الدكتور كميل ناشف : شعر النوريات بين المشرق والاندلس جامعة القديس يوسف ١٩٨٤ ، وبحث للسيد مقداد رحيم خضر بعنوان « تاريخ النوريات في الشعر العربي في المشرق وفي الاندلس ، مجلة آداب المستنصرية العدد ١١ ، ١٩٨٥ ص ١٩٩ ـ ٢٢٥ واقدم منهما ما كتبه د . احسان عباس في تاريخ الادب الاندلسي / عصر سيادة قرطبة ص ١٠٦ ـ ١١٢

( ٥ ) ديوان ابن زيدون ١٣٩

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق . ومرأى الأرض قد راقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زهرٍ ... جال الندى فيه ، حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقي ... بكت لما بي . فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين إشراقا

لقد أثرت هذه القصيدة في الشعراء وتجاوز أثرها الشعراء العرب الى شعراء الطبيعة الغربيين الذي يربطون بين الطبيعة والحب[١] . فاذا كانت هذه القصيدة تستحوذ على اهتمام الادباء اعجاباً بها فان من الباحثين من شخص ظاهرة تدعو الى التأمل والدراسة تتمثل في اننا لا نكاد نجد لابن زيدون في الطبيعة الأندلسية الساحرة مقطوعة واحدة فضلًا عن قصيدة كاملة تستقل بنفسها يصف فيها شيئاً من مظاهر الطبيعة[٢].

ان شعر ابن زيدون كله ـ كما يرى الدكتور ناصر الدين الاسد ـ يكاد يكون افوافاً من الطبيعة موشاة نسجتها يد صناع[٣]، أبدعت تصوير حواشيها وابراز نقوشها . ولكن كيف يعلل هذا الاهمال في شعره ؟

الحق انه ليس اهمالاً للطبيعة بل إننا نلاحظ تفاعل الشاعر بها حتى امتزجت بعروقه وخالطت بشاشتها روحه الشاعرة ، وعادت الطبيعة ذوباً من عواطفه ، وحواسه ، بحيث لم يكن يحس بالطبيعة ومظاهرها معزولة وحدها احساساً منفصلًا مستقلًا قائماً بذاته حتى يفردها في قصائد ومقطوعات ، انما كان إحساسه بالطبيعة جزءاً من إحساسه العام بالجمال ممزوجاً بإحساسه بالمرأة وشعوره بها .. ومن ذوب هذه الاحاسيس صاغ شعره في الغزل والتشوق والتذكر والمناجاة والشكوى والوصل والهجر[٤] .

وبعد أن كان الشاعر في العصور السابقة بالاندلس يقلد ويعارض في روضياته ، قويت فيه النزعة واستحكمت بحيث أصبحنا نقرأ في أشعاره شخصية الشاعر المتفاعل مع بيئته وبذلك استطاع أن يحقق امتيازاً على الشاعر المشرقي ، بقدر امتياز

---

(١) مقدمة ديوان ابن زيدون ٨٢

(٢) ليس في شعر ابن زيدون ، بحث الدكتور ناصر الدين الاسد ، مجلة الكتاب العدد ١١ ، ١٢ ، بغداد ١٩٧٥

(٣) نفسه ٥٩

(٤) نفسه ٦٠

الطبيعة الأندلسية التي سكبت في روع الشعراء ، فأقبلوا ينهلون من رضابها ، ويرشفون من حلابها ، وخالطت نفوسهم بشاشتها ، استمع الى ابن خفاجة[1] :

إن لـــلـــجـــنة بالأندلـــس ... مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ... ودجى ليلتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صباً ... صحت واشواقي إلى الاندلس

لقد استحوذ جمال الأندلس على حواسه وجوارحه فصاح من فرط اعجابه « واشوقي » ولم لا ؟ وهو يرى في الطبيعة صورة من صور جنة الخلد التي وعد الله عباده يوم القيامة[2] :

ياأهل أندلس لله دركم ... ماءٌ وظلٌ وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ... وهذه لو كنت خيرت أختار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تدخل بعد الجنة النارُ

ان النصين المتقدمين آنفاً ، بطاقتا تهنئة ازجاهما شاعر الطبيعة للاندلس فخلد بهما جمالها على مر العصور ، ولا يقل عنه شأناً بل ربما يضاهيه ابن اللبانة في مقطعة يصف فيها ميورقة احدى جزر البليارد في البحر الأبيض المتوسط[3] .

نزل الحيا بنزوله في معهد ... لبس المسرة ربعه المأنوس
فـــكأنـــما ماء الـــغـــمام مدامةٌ ... وكأن ساحات الديار كؤوس
بـــلد اعارتـــه الـــحـــمامة طوقـــها ... وكساه حلة ريشه الطاووس

والأبيات تذكر بما يرويه المقرى في نفحه من أن هارون الرشيد حين مثل بين يديه رجل مغربي لامر ما قال مدلاً بسعة سلطانه وعلو شأنه ،

« يقال ان الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب ، فأجابه المغربي ، صدقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاووس[4] .

والطبيعة تترك أثراً في مخيلة الشاعر حتى يستخدمها في موضوعات الشعر كافة ، فمما جاء في مدحة ابن اللبانة قوله[5] :

---

( ١ ) ديوانه رقم ٨٨
( ٢ ) ديوانه رقم ٢٠١
( ٣ ) ديوانه بتحقيقنا ، ق ٤٢ .
( ٤ ) النفح ١ / ٢٢٨ وينظر تيارات النقد الاندلسي ٨٤ ـ ٨٥ .
( ٥ ) ديوانه ق ١٧ .

هو صبحٌ وربيعٌ وحيا  يجتلى او يجتنى او يجتدى

واذا اصيب الممدوح بسوء فإنّ الكون والطبيعة يشاركانه هذا المصاب[1]:

شكا لشكواك حتى الشّمس والقمر  وفاتَ درّ الدّراري الزهر ينتشرُ
وراحت الرّيح لا يذكو لها عبقٌ  وأصبح الرّوض لا يندى له زهر
وقلّص الظّل في فصل الرّبيع لنا  فكادت الأرض الرمضاء تستعر
والماء غاض لنا غيضاً فما نبعت  عين ولا سال في بطحائها نهر
والسّحب صاحبها ذعرٌ فما نشأت  ولا استهل لها فوق الرّبا مطرُ

وشعر الطبيعة يمثل لنا مدى تعلّق الأندلسيين ببيئتهم الجديدة. فاتجهوا يصفون صُنع الله في الكون فجمال الطبيعة كان أهم باعث على قول الشعر فيها. وقد تفاعل الشعراء معها في حاليهم سعدهم وحزنهم. سرورهم وأساهم .. وابن خفاجة في مقدمتهم. ملأ جمال الدّنيا عينيه فمال بكلّيته اليه[2]. ومن هذه الألوان في الطبيعة الصامتة ما قاله في الروض والشجر: كالاراك. والبان. والسلم. والريحان. والسدر والد فلى والرند ... ومن الأزهار: النارنج والريحان. والورد. والشقيق والنيلوفر والاقحوان. والعرار والخزامي والنرجس والسوسن والبنفسج. ومن الثمار: النارنج. والتين. والعنب. والرمان. وفي الغصون. والربى. والبطاح. والجبال. والانهار. والبحر. والغمام. والمزن. والندى. والسيل. والبرد. والثلج. والبرق. والرعد. والشمس. والقمر. والنجوم. والليل والنهار ...

كما نجد الطبيعة الحية بالوانها في وصف الحيوان .... وقصائد في وصف الادوات والآلات كالسيف والرمح والأبنية والقصور .... والطعام والشراب ومن هنا فالشاعر متجه الى التخصص في الشعر لا سيما في الازهار اذ يفرد في كل نوع ابياتاً.

ولم يكن ابن خفاجة بدعاً في ذلك فان ابن حمديس الصقلي لم يقل مقامه عنه حيث يقرر الدكتور احسان عباس أن الوصف موضوع كبير جداً في ديوانه. وللبيئة الصقلية اولاً والاندلسية ثانياً اثرهما في ابرازه على هذا النحو. وهو يشمل عناصر كثيرة فهناك وصف الطبيعة من انهار وغدران وسواق واشجار وازهار كالنيلوفر والشقائق وفواكه كالنارنج وسحاب وبرق ورعد وبحار .. ووصف الحيوانات والحشرات. كالأسد والناقة والزرافة والعقرب والبق والبعوض والذباب .. »[3]. الا

---

(١) ديوانه ق ٢٤.

(٢) الشعر الاندلسي ـ كنون ٢٨٥

(٣) مقدمة الديوان ص ١٩ قصيدتان له برقم ٥٦ و ٥٧.

ان الدكتور احسان عباس لا يلمس تعاطفاً بين الشاعر والطبيعة ، وهو رأي فيه نظر ، لاسيما لمن يستقرئ شعره .

غلبت على شعر الطبيعة فنون البديع والبيان . فجاء مثقلاً بالتشبيهات والاستعارات « مترعاً بالاخيلة ( بل كان مثقلاً بها حُمل منها فوق ما يطيق ... وكما يحدث لشجرة مثقلة بالثمار اذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة .. »[١]

وتكثر المحسنات البديعية في شعر الطبيعة كما تكثر الصور البيانية ممثلة في التشبيه والاستعارة والكناية على نحو ما نجد في شعر ابن اللبانة حيث يقول[٢] :

والوردُ تحت الطَل فيها مشبه ... خدًا يذوبُ من الحياء فيقطر
وكأن نرجسها أصيب بروعتي ... فعلاه لون مثل لوني أصفرُ
فكأنما الرَيحان روحي كلّما ... تتغير الاشياء لا يتغيرُ

وقد نظروا الى الطبيعة الى أنها حية تشاطرهم الحياة ويشاطروها حياتها فشخصوا لنا الامور المعنوية فمنها قول ابن حمديس يرثى جاريته « جوهرة » :

يا باقةً في يميني بالردَى ذَبُلت ... أذاب قلبي عليك الحزن والأسف
ألم تكوني لتاج الحسنِ جوهرة ... لمّا غرقت فهلا صانك الصَدف

وظاهر البيتين أنهما في باقة ذبلت ، لكن النظرة المتأملة ، لا تلبث أن تعيدهما الى سياقهما مستعينة بالقرائن على ذلك ، ومنها « جوهرة » و « غرقت » ، واما « جوهرة » فقد أوردها على صفة التورية ، إذ هو لا يريد الحجارة الثمينة بل جاريته التي ابتلعتها مياه البحر ولم تصنها اصدافه وانما أورد الشاعر « الباقة » على سبيل الاستعارة التصريحية[٣] .

ولابن حمديس أبيات في هجاء باقة جميلة لكنها خالية من العطر[٤] :

وباقةٍ مستحسن نورها ... وقد خلت في الشَم من كل طيب
كمعشر راقتك اثوابهم ... وليس في جملتهم من اديب

---

( ١ ) الشعر الاندلسي غومس ٢٦ .
( ٢ ) ديوانه ق ٢٤ .
( ٣ ) ديوانه ق ١٩٦ وينظر البحر في شعر الاندلس والمغرب ص ٣٦ .
( ٤ ) ديوانه ق ٢٠ .

ونراه في موقف آخر يحنو على زهرة النيلوفر » لأنه وجدها غريبة مثله فيقول :

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه  كلانا عن الأوطان أزعجه الدّهر[1]

ومادمنا نستعرض النصوص الشعرية ذات الامتياز ، والتفوق فإنا نجد قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل رائعة مشهورة ، نطقت عن هذه المشاركة الوجدانية للطبيعة يبدؤها بالحكمة والاعتبار ، ويصور حالته النفسية واضطرابه حتى يبلغ البيت العاشر فيصف الجبل :[2]

وأرعنَ طمّاحِ الذّؤابة باذخٍ  يطاولُ أعنان السّماء بغاربِ
يسدّ مهبَ الرّيح عن كلّ وجهةٍ  ويزحمُ ليلاً شهبَه بالمناكبِ
وقورٌ على ظهرِ الفلاة كأنه  طِوال اللّيالي مُطرِقٌ في العواقبِ
يلوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ  لها من وَميضِ البَرقِ حمرَ ذوائبِ
أصختُ اليه وهو أخرسُ صامتٌ  فحدّثني ليلُ السّرى بالعَجائبِ

أعجب النقد الحديث بالقصيدة ، وأعرب الباحثون عن استحسانهم أياها فقال عنها الدكتور جودة الركابي[3] : انها نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، وقال عنها الدكتور محمد رجب البيومي[4] انها جاءت نسقاً شعرياً متكاملاً ذا شعاب وافانين ، ولو ذهب جميع ما قاله ابن خفاجة وبقيت وحدها ، لكانت معجزة إبداعه ، ودليل تفوقه ! .. وقد كانت لنا وقفة سابقة عند هذه القصيدة وأخت لها في وصف القمر ، حيث لاحظنا نزعة اسلامية صوفية تلابسهما[5] .. وفي ترجمة حياته .. وأشعاره .. ما يعزز هذه النزعة[6] .

رأى بعض الباحثين ان ابن خفاجة استوحى في هذا التصوير مخاطبة مجنون ليلى لجبل التوباذ[7] .. وفرق كبير بين الشاعرين في قصيدتيهما .. لأن قول المجنون خطرة عابرة ، لو وقف عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ .. ولو كان المجنون ـ على سبيل المثال ـ موحياً موجهاً لكان لابن خفاجة فضل أثير ، أن يكون موضع هذا الايحاء ، وقد عبرت القرون خلف المجنون ، وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقاً

---

( ١ ) ديوانه ق ١١٣

( ٢ ) ديوان ابن خفاجة ق ١٦٤

( ٣ ) الطبيعة في الشعر الاندلسي ٢٦

( ٤ ) الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ، ٧٨

( ٥ ) الاتجاه الاسلامي ٤٩٩ وما بعدها

( ٦ ) بغية الملتمس رقم ٥٠٢ ، ديوانه ق ١٤

( ٧ ) فصول في الشعر ونقده ١٥٨

وغرباً دون أن يبدع أحدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة[1] .. ومن الشعراء الذين تأثروا بهذه القصيدة الرصافي البلنسي في رائيته المشهورة[2]

واذا كنا قد تمثلنا النصوص لشعرية أنماطاً في وصف طبيعة الأندلس ، فإن جلها كان حول الطبيعة الصامتة ، ولنا أن نتمثل على الطبيعة الحية ، أو وصف الحيوان فإنه من الموضوعات التي نظم فيها الشعراء الاندلسيون ، وأكثروا فيها على نحو واسع ، ومن أبيات ابن شهيد التي اختصها بوصف النحلة على نحو دقيق ، وبراعة متناهية يقول[3] :

وطائرةٍ تهوى كأن جناحها ... ضميرٌ خفيٌ لا يحدّده وهمْ
ملازمةٍ للروض حتى كأنّما ... لها كلّ ما تفترّ عنه الربى طُعمْ
تمج بفيها الشّهد صرفاً ويختفي ... لمشتاره ما بين أحشائها سهم
منافرةٍ للانس تأنس بالفلا ... مفرّقة للشّهد من بَعضها السّم
فإدناؤها رشدٌ ، وهتكُ حجابها ... اذا احتجبتْ في غير أيامها ظُلم

« والصورة تعتمد قدراً غير قليل من التفصيل ، وبسط القول في صفات هذا الحيوان في مظهره ومخبره وتحركه وطيرانه ، وحتى في طباعه »[4]

وقد سقنا بين يدي البحث نصوصاً شعرية تمثل عصور الاندلس المختلفة وقد آن لنا أن نتوقف عند عهدي الموحدين وبني الأحمر ، ولعل خير من يمثل العهد الأول شاعران هما ابن سهل الاندلسي ( ت ٦٤٩ هـ ) وابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى ( ت ٦٨٤ هـ ) ، وكانا صديقين ، وكثيراً ما كانا يتشاركان في نظم القصيدة الواحدة ، ويجيز أحدهما للآخر ، وكانا بلديين ، وكانت أشبيلية من أغنى المدن الاندلسية بمنتزهاتها ومنها : السلطانية والعروس ، وفم الخليج ، ومرج الفضّة ، وشنّبوس ، وقصر حسّان ، والفنت وجنّة قشتيلة .[5] وشرق اشبيلية وادي الطلح ، وفيها مدينة طريانة وتيطل .[6]

---

( ١ ) الادب الاندلس بين التأثير والتأثر ٧٨ .
( ٢ ) ديوانه ق ٢٤ ، وتنظر مقدمة الديوان ١٨
( ٣ ) ديوانه . ق ٦٠١ .
( ٤ ) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ١٧٩ .
( ٥ ) مقدمة ديوان ابن سهل ص ١٦ د . احسان عباس .
( ٦ ) نفح الطيب ٢ / ٢٨٥ ، ١ / ١٨٢ .

فمن ذلك قول ابن سهل في رائيته التي يعارض فيها رائية ابن عمار التي اشرنا اليها في شعر المديح .[1]

الأرض قد لبستْ رداء أخضرا ... والظّل ينثرُ في رُباها جَوهرا
هاجتْ فخلت الزّهر كافوراً بها ... وحَسيتَ فيها التّربَ مسكاً اذفرا
وكأنّ سوسَنها يصافحُ وردَها ... ثغرٌ يقبّل منه خَداً احمرا
والنهرُ ما بينَ الرياضِ تخالُه ... سَيفاً تعلّق في نِجادٍ أخضرا
وجرتْ بصفحتهِ الصّبا فحسبتُها ... كفا تنمّق في الصحيفة أسطُرا
وكأنّه إذ لاح ناصعُ فِضّة ... جعلته كفّ الشّمس تِبراً أصفرا

ويقول ابن سعيد ذاكراً وادي الطلح .[2]

سائلْ بوادِي الطّلح ريحَ الصّبا ... هل سُخرتْ لي في زمانِ الصّبا

واذكر بوادي الطّلح عهداً لنا ... لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الا ... غصانَ والزّهرُ يبثّ الصّبا
والطيرُ مازتْ بين ألحانها ... وليس الا مُعجباً مطرِبا

ولم يكن شعراء بلنسية ـ في عهد الموحدين ـ أقل اعتباراً بالطبيعة وتأملها . وممن نظم فيها ابو المطرف بن عميرة . فاستمع اليه يصف نزهة في نهر شقر ،

خذ في حديثك إن وصفكَ يطربُ ... عن يوم إنسٍ ذكرهُ مستعذَب

وبعد هذه الوقفة المتأنية عند شعر الطبيعة في الأندلس ـ الحية والصامتة ـ نخلص الى أبرز الخصائص الفنية التي اتسم بها .. ، ففيما يتصل بأساليبهم ولغتهم ،

- استخدموا فنون البديع على صورهم ، من طباق وجناس ومقابلة ومبالغة ، وكان ولعهم بحسن التعليل سمة واضحة في اشعارهم[3]
- كذلك افادوا من فنون البيان ، من تشبيه واستعارة وكناية ... وكانت عوامل مهمة في بناء الصورة الفنية لقصائدهم فقد استنفذوا طاقاتهم ـ ما اتسعت ـ بقصد الأتيان بالصور المبتكرة والمستحدثة والطريفة ولذلك غلبة سمة التشخيص والتجسيم في قصائدهم والمراد بهما نسبة صفات البشر الى افكار

---

( ١ ) ديوانه ق ٥٤ ص ١٦٢ .
( ٢ ) النفح ٢ / ٥٨٥ .
( ٣ ) قضايا اندلسية ص ٧٧ ، ١٤١ .

مجردة أو الى اشياء لا تتصف بالحياة .[1] ولأن الذوق السائد في العصر كان له اثر كبير وجدنا سمات التشخيص والتجسيم مجردة من التعاطف الوجداني القائم على استبطان مظاهر الطبيعة والتعمق في تأملها عل نحو ما نجد عند ابن خفاجة في قصيدة بوصف الجبل . وقد تجلى هذا الاتجاه في عصر النهضة واطلق عليه المذهب الرومانتيكي .

تأكيدهم على الالوان في الصور الفنية التي رسموها وكذلك الكلمات الدالة على الحركة[2] على نحو ما نجد في قصيدة ابن سهل التي عارض بها ابن عمار . وعلى نحو ما نجد في قول[3]

والشمس قد ألقتْ عليه رِداءَها  فتراهُ يرفلُ في قَميصٍ أصفرِ

أو في قول ابن سعيد :[4]

والشمس قد رَقَمَتْ طِرازاً فوقَـه  فكأنَـما هي حلةٌ زرقـاء

- كذلك غلبت على أساليبهم سلاسة الاسلوب في أكثر أشعارهم ، وميل بعضها الآخر الى جزالة الالفاظ ومتانة التراكيب . ومن الضرب الأول ، المقطعات الشعرية التي مرت بنا في سينية ابن خفاجة ورائيته . « ان للجنة بالاندلس » و « يا أهل أندلس » .

وفيما يتصل ببناء ، قصيدة شعر الطبيعة نلاحظ تبايناً فيها حيث ترد في صيغة مقطعات قصيرة وقصائد طويلة وموشحات . وفي الضرب الأول يقتصر على موضوعه ، واما في القصائد فتمتزج بموضوعات أخرى كالغزل والمديح ووصف المجالس والشوق والحنين والرثاء . وكذلك يمتزج بها في الموشحات .

وفي مجال الموازنة بين شعري الطبيعة في الاندلس والمشرق ، اعتمد المشارقة على العقل والتفكر في وصفهم فكانت صورهم اعمق واقوى من الاندلسيين الذين اعتمدوا على الحس والذوق فكانت صورهم اجمل واوضح[5] .

---

(١) الادب في عهد المرابطين ٩٦ .

(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ص ١٠٢ .

(٣) ديوانه ، ١٦٦ .

(٤) نفح الطيب ٢ / ٢٦٣ .

(٥) قضايا اندلسية ١٤١ .

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع في الشعر الأندلسي وكثرة ما انشأ فيه الشعراء على امتداد عصور الاندلس فأن الكتب والمصنفات التي الفت فيه لم تقع بين ايدينا ، باستثناء كتاب واحد هو البديع في وصف الربيع لأبي الوليد اسماعيل الحميري ( ت ٤٤٠ هـ )[١] فقد قرر المؤلف في التمهيد بأن فصل الربيع آرج وأبهج وآنس وأنفس وأبدع وارفع من ان يحد حسن ذاته ويعد بديع صفاته ، وعلى الرغم من ذلك فأنه لم يعن بتأليفه احد .[٢]

اختص كتابه بنتاج عصره من اهل الاندلس لأن نتاج المشارقة ـ كما يرى ـ قد كثر الوقوف عليه والنظر اليه حتى ما تميل نحوه النفوس وقد انتظم في ثلاثة فصول هي :

**اولا** : القطع التي لم يسمّ فيها نور .

**ثانيا** : القطع التي لم تنفرد بوصف نوار بل اشتملت على وصف نورين أو أكثر .

**ثالثا** : القطع المتفردة كل واحدة بنور .

وأما الدراسات الحديثة فأنها لم تفِ على نحو ما ينبغي فقد جاءت دراسة الدكتور جودة الركابي موجزة مختصرة في حوالي خمسين صفحة وله فضل السبق في دراسته الا ان ما يتخونه التتبع والاستقصاء والتحليل والاستنباط اذ جعله في اربعة فصول تحدث في اولها عن شعر الطبيعة في الادب العربي وثانيها يدور حول بواعث شعر الطبيعة في الاندلس واشهر اعلامه والاطوار الثلاثة التي مر بها في قرونه الثمانية وجاء الفصل الثالث فقد تحدث فيه عن خصائص وصف الطبيعة في الشعر الاندلسي أجمل الدكتور الركابي هذه الخصائص في تسع نقاط .

اما الفصل الرابع فلمنتخبات من شعر الطبيعة لابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة ونصوص أخرى لغيرهم ، ولعل ميزة الكتاب ، ان المؤلف حاول ان يدلل بأن الاوربيين لم يمتازوا علينا بشعر الطبيعة كما يزعم عدد من الدارسين .

---

**( ١ ) حققه هنري بيرس بعنوان ( البديع في فصل الربيع ) ط معهد العلوم العليا المغربية ١٩٤٠ تنظر دراسة الدكتور محمد مجيد السعيد ( الحميري وكتابه البديع ) مجلة آداب المستنصرية العدد ١٠ ، ١٩٨٤ .**

**( ٢ ) البديع ص ١ .**

ومن الدراسات الحديثة المتخصصة دراسة نهض بها الدكتور حازم عبدالله خضر[1] تحدث فيها عن الطبيعة الحية في عصري الطوائف والمرابطين وجاءت في بابين تناول في اولهما استعراض النماذج الشعرية في وصف الخيل والأبل ونعوت الاسد والذئب وكلاب الصيد ثم اوصاف الحمام وختم الحديث في نعوت الطيور الجارحة والزواحف . وفي الباب الثاني وقف عند الخصائص والسمات الفنية لهذا الشعر في بناء القصيدة ودلالة الموضوعات على نفسية الشاعر وشخصيته وابرز ملامح المجتمع والبيئة الاندلسية وجمل النتائج المهمة التي تمخض عنها البحث خاتمة لكتابه .

---

( ١ ) وصف الحيوان في الشعر الاندلسي ط وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٨٧ .

( ٢ ) نفسه ٢١٠ وما بعدها .

# المبحث الرابع

# رثاء المدن والممالك

## ٣ ـ رثاء المدن والممالك :

اختلف الدارسون في مفهوم ( رثاء المدن والممالك ) ومنهم من فرق بين رثاء المدن ورثاء الممالك فاطلق الاول على تلك المدن التي سقطت في يد الاسبان واستلبت من ايدي المسلمين فبكاها الشعراء . وأطلق الثاني على دول ملوك الطوائف التي سقطت بدخول المرابطين الى الاندلس . وما نظمه الشعراء من قصائد شعرية تأسى وتأسف على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهؤلاء الملوك[١] .

ويصح ان ينسحب هذا المفهوم على المدن التي سقطت وخربت بفعل الفتن التي طرأت على الأندلس بسبب فساد الاحوال السياسية . وترديها . وفرق بين الاتجاهين من حيث حجم النتاج ونوعية القصائد التي نظمت في كل .

وفي هذا الموضوع يرى الدكتور سعد شلبي أن الاندلسيين سجلوا السبق في رثاء المدن واما رثاء الممالك فقد كان مقدمة وإرهاصاً لتفوقهم فيه[٢] .

اطلق الدارسون على هذا اللون من الشعر اسماء اخرى فسمي بـ ( شعر النكبات والكوارث )[٣] و ( الشعر الحزين ) حيث وجد فيه الدكتور بدير متولي حميد احد ألوان ثلاثة تفوق فيها الاندلسيون[٤] . وسماه عبد الله كنون ( الشعر الوطني )[٥] . وكذلك استوحى احد الباحثين تسميته فجعلها موضوعاً لرسالته الماجستير « الوطن في الشعر الأندلسي »[٦] . وجاء حديث الدكتور شوقي ضيف عاماً عن هذا اللون من الرثاء . حيث سماه : ندب الدول والبلدان[٧] .

---

( ١ ) البيئة الاندلسية واثرها في الشعر ٣٢٤ .

( ٢ ) نفسه ص ٣٣١ .

( ٣ ) ادب النكبات ، مجلة النداء الاجتماعي ١٩٥٥ .

( ٤ ) قضايا اندلسية ١٣١ .

( ٥ ) الشعر الاندلسي ، مجلة المجمع العلمي العربي ٢١ / ٣ / ٢٩٣ .

( ٦ ) الوطن في الشعر الاندلسي ـ عبد الحميد ابراهيم شيحه دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

( ٧ ) الرثاء ص ٤٠ ، ٤٧ ـ سلسلة فنون الأدب العربي ـ الفن الغنائي ( ٢ ) .

يكاد الاندلسي ينفرد بهذا الموضوع ، حيث كان القرن الخامس الهجري أحفل عصوره بالصراع الذي أدى الى سقوط مدن الاندلس وممالكه ، وقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع اندلسي خاص ، فعُدَّ أبرز معالم الشخصية الأندلسية ، وتفوق على شعر الرثاء بصورة عامة ، وعلى قصائد رثاء المدن والممالك في المشرق ، بصورة خاصة ، والأمر يعزى الى وجود الدوافع والمحفزات التي لم يحصل مثيلها في المشرق ، كما لم تكن بهذه السعة ، وعمق التأثير ، فقد كانت الحروب سجالاً بين المسلمين والاسبان ، وكان يتفق أن تسقط مدينة فيستردها المسلمون ثانية ، لتسقط ثالثة ، مما يؤجج العواطف ويضرم المشاعر ... غيرة على دمائهم واموالهم واعراضهم ، يراها الشّاعر مهدرة ... ويرى أن زمام الأمر قد أفلت من يديه ... في مدينة تقلب في نعيمها ... وحفظت مخيلته لها ذكريات عبقة ، تمسي مهيضة الجناح ، يفتك بها العدو ، ويشعل نار العداوة والبغضاء ، فما يكون منه الا ان يرثي تلك المدينة الساقطة ، بشعر أشبه ما يكون بالندب ، والبكاء ، والتفجع ، في زفرات وأنات قلب كليم .

في الوقت الذي لم يكد شاعر المشرق يكفكف دموعه حتى يقبل على تهنئة الحاكم الجديد فانشغالهم بالخلفاء والحكام الذين خلفوا السابقين صرفهم عن إطالة الحسرة والبكاء على الدول السابقة ، بينما كان سقوط الدولة بالاندلس يحمل اكثر من معنى داعياً الى اطالة التأمل والاعتبار .

اتجه الشاعر الاندلسي تارة الى تسليم الأمور الى الله والشكوى لسوء الحال ، والهرب من المدن الساقطة ، بعد البكاء والعويل ، وتارة الى استصراخ الملوك واستنهاض هممهم ، واستنصارهم ، ويتجه الى ضمائر المسلمين يسألهم شد العزائم ، للانتقام من العدو المتربص ، ثم يطبب الشاعر جراحه ويأسوها مخاطباً الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) مستمداً منه القوة والأيد تارة اخرى وفي كثير من الأحيان يتجه الى الوصف التفصيلي للحالة التي حلّت بالمسلمين إثر سقوط مدنهم وممالكهم .

واذا كان الشعر الأندلسي قد أحرز هذه المرتبة في هذا الميدان فليس معنى هذا أن المشرق لم يعرف هذا اللون ، فالباحث يجد قصائد متناثرة في مصادر الأدب والتاريخ تصور النكبات وتحكي الويلات والمصائب ، التي حلت بتلك الامم ، ومن أقدم ما قيل قول عدي بن زيد العبادي ( ت ٣٥ ق . هـ ) في قصيدة مطلعها[١] :

---

( ١ ) ديوان عدي بن زيد العبادي ٨٤ ـ ٩٢ ( حققه وجمعه محمد جبار المعيبد وزارة الاعلام بغداد ( ١٩٦٥ ) .

أرواح مودَع أم بـكـــــور  لك فاعلم لأيّ حالٍ تصـير

وهي في خمسين بيتاً . وعلى المنهج نفسه . قول الاسود بن يعفر يبكى ال محرق في داليته التي مطلعها[1] :

نام الخليّ وما أحسُّ رقـادي  والهم محتضر لديَّ وسـادي

ويذهب هذا المذهب الأعشى الاكبر ( ت ٧ ق . هـ ) اذ يرثي قصر ريمان من قصيدته التي مطلعها[2] .

أصرمت حبلك من لميـ  ـسَ أم طـال اجتنابـه ؟

ولو ألقينا نظرة على سفح التاريخ . لوجدنا الشعر سجلاً حافلاً في تصوير النكبات التي حلت في العالم الاسلامي بجناحيه . المشرق والمغرب ... فقد رثى ابو العباس الأعمى دولة بني أمية . ورثى آخرون دولة العباسيين بدخول المغول الى بغداد . ودولة الطولنيين وغيرها من الدول .

كما ندبوا مدناً اسلامية حلّت بها فتن جائحة ... وهي ظاهرة مألوفة . تاريخياً فمن ذلك رثاء عمرو بن عبد الملك الوراق وابي يعقوب الخريمي بغداد ١٩٧ هـ بالفتنة التي حلت بين الامين والمأمون ـ وكذلك رثاء البحتري دولة المتوكل العباسي ٢٤٧ هـ ورثاء ابن الرومي مدينة البصرة بافساد الزنج إياها ٢٧٧ هـ . وقد رثى الشعراء بيت المقدس ومدن الشام التي سقطت اثناء الحروب الصليبية ... وبقى الشعر ـ حتى العصر الحديث ـ يرسم معالم المدن التي تسقط وتحل بها النكبات[3]. وهي جميعاً تدخل في الندب لا التأبين او العزاء[4] .

لكن رثاء المدن والممالك في الأندلس تميز على صِنوه بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي استمرت عند الأندلسيين . وشهودهم هذه الحال بين سمعهم وبصرهم لتتكرر .. كما تميز بغزارة النتاج الشعري . ولذلك يعد الدكتور الطاهر مكي بكاء الممالك المنهارة . والمدن الذاهبة فناً اندلسياً أصيلاً . وجدت بعض دوافعه في

---

(١) ديوان الاسود بن يعفر رقم ١٢ ( تحقيق د. نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد سنة ١٩٧٠ ) .

(٢) ديوان الاعشى الكبير ٢٨٩ ( شرح وتعليق د. محمد محمد حسين ( ط النموذجية د ـ ت ) .

(٣) ينظر الرثاء ـ شوقي ضيف ص ٥١ .

(٤) ينظر حول رثاء المدن في المشرق ، الادب الاندلسي بين التأثير والتاثر ٢١٠ ـ ٢٢١ .

المشرق والمغرب على السواء . وخص الأندلس ببعضها . وتفرد في الحالين بأنه جرى مع هذه الدوافع الى غايتها . فكان له معها قصيد رائع احياناً . ودون الجيد أحياناً أخرى تبعاً لثقافة الشاعر . وطاقته النفسية . وحظه من تجارب عصره عمقاً وأتساعاً[١] . الا أن الدكتور محمد رجب البيومي لا يذهب في نظرته لهذا اللون من الشعر مذهب المعادلة المنطقية . بل يجد أن من الأنصاف الأقرار بأن الأندلس قد برعت براعة مشهودة[٢] .. وقبله أقر بهذا التفوق الدكتور أحمد أمين[٣] ..

وعلى ضوء ما تقدم بنا من مفهوم رثاء المدن والممالك . سنتناول ابرز التجارب الشعرية :

**الاتجاه الاول :** رثاء مدن أندلسية قد خربت وفسد النظام فيها . بفعل المحن والفتن التي فتكت بها . بما كسبت أيديهم حيث صار الحكم فيها ملكاً عضوضاً . يطمع فيه القوي والضعيف . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً في عصر الفتنة ( ٣٩٩ ـ ٤٢٢ ) . تلك التي وصفت بانها جائحة ومبيرة فقد تعاقب خلالها على حكم الأندلس ثلاثة عشر حاكماً . فرثى ابن حزم قرطبة شعراً ونثراً ومما وصل قصيدة في سبعة أبيات . يصفها بروفنسال بأنها ( قصيدة عصماء لا يعدلها في نوعها شيء[٤] ) . ومطلعها[٥] :

سلام على دار رحلنا وغودرت  خلاءً من الأهلين . موحشة قفرا

وفيها حسرة وبكاء على ما نزل بتلك المدينة من خراب

فيا دارُ لم يقْفرك منا اختيارنا  ولو أننا نسطيع كنتِ لنا قبرا
ولكن أقداراً من الله أنفذت  تدمرنا طوعاً لما حل أو قهرا

ورثاها شعراء آخرون منهم ابن شهيد ( ت ٤٢٦ هـ ) في قصيدة ومقطعة يقول في الاولى[٦] :

---

( ١ ) دراسات اندلسية ٢٢٩ .
( ٢ ) الادب الاندلسي بين التأثير والتاثر ٢٦٦ .
( ٣ ) ظهر الاسلام ٣ / ٢٠٣ .
( ٤ ) سلسلة محاضرات ص ١٣
( ٥ ) اعمال الاعلام ١٠٧ وينظر تاريخ الأدب الأندلسي ١/ ١٣٩
( ٦ ) ديوانه رقم ٢٦

ما في الطلولِ من الأحبّة مخبر ... فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألن سوى الفراق فإنه ... ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا ... في كل ناحية وباد الاكثر

والقصيدة كسابقتها فيها تفجع وبكاء وندب لدار ضمت ذكريات عبقة للشاعر، حيث يستذكر محاسنها، وجمال الطبيعة فيها، وقد ضرب الأمن والسلام رواقه فتعمم القوم بجمالها وبهروا بفتنتها المتمثلة في قصورها، الزاهرية والعامرية، والمسجد الجامع، ومسالك الأسواق، حتى عصفت بها الفتنة فأذهبت بهجتها ونقضت بناءها الشامخ، وتذهب نفسه حسرات، عليها وعلى المعالم الحضارية، والخسارة التي حلت بازهاق نفوس كثيرة من العلماء والادباء، وكان احدهم، ابو الوليد بن الفرضي ( توفي لست خلول من شوال سنة ٤٠٣ هـ )، وبقي في داره ثلاثة ايام مقتولاً[١]، وفي هذا تجيء ابيات ابن شهيد تفيض بمعاني الاسف والأسى على ذكرياته فيها:

ياجنةً عصفت بها وبأهلها ... ريح النوى فتدمرت وتدمروا
أيام كانت عين كل كرامة ... من كل ناحية اليها تنظر
أيام كانت كفُّ كل سلامة ... تسمو اليها بالسلام وتبدر
حزني على سَرواتها ورواتها ... وثقاتها وحماتها يتكررَ
نفسي على آلاها وصفائها ... وبهائها وسنائها تتحسر
كبدي على علمائها، حلمائها ... أدبائها، ظرفائها، تتفطر

ولعلها أطول قصيدة وصلت الينا تصور فتنة قرطبة، حيث تبلغ ثلاثين بيتاً. واما مقطعته فهي نونية مردفة بألف موصولة بياء مختومة بهاء السكت التي تحكي الحسرات والزفرات يرثي فيها قرطبة عجوزاً شمطاء حيث يقول:[٢]

عجوز لعمر الصبا فانية ... لها في الحشا صورة الغانية
تردّيت من حزن عيش بها ... غراماً فيا طول أحزانية

وتبدو أبعاد هذه الفتنة والالام والاشجان التي اعتملت في صدور عدد من الشعراء حيث أرخوها، فيما ينقل الينا الشيخ محيي الدين ابن عربي ابياتاً قال انه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها رثاءً، وهي:[٣]

---

(١) الصلة ١ / ٢٥٢
(٢) ديوان ابن شهيد رقم ٦٩
(٣) ينظر دولة الاسلام في الاندلس ٤٠٠ ـ ٤٠١

ديارٌ بأكناف الملاعب تلسمعُ ... وما إن بها من ساكنٍ وهي بَلقَعُ
ينوحُ عليها الطير من كل جانبٍ ... فيصمت أحياناً . وحيناً يرجّع
فخاطبت منها طائراً متغرداً ... له شجن في القلب وهو مروّع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ؟ ... فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ونبقى مع حاضرة الأندلس وواسطة عقدها « قرطبة » حيث حفظت لنا المصادر قطعتين غير منسوبتين في البيان المغرب . مطلع الأولى [1] :

بَكِّ على قرطبة الزين ... فقد دهتها نظرةُ العين

ومطلع الثانية : [2]

أضعتم الحزم في تدبير أمركم ... ستعلمون معاً عقبى البوار غدا

وما ذهب وفقد من شعر في رثاء المجد الباذخ . والعز الشامخ . لهذه المدينة كثير فقد قال الخولاني عن ابن عصفور الحضرمي . ابي القاسم احمد بن محمد ( ت ٤١٠ هـ ) : ( انشدني كثيراً من أشعاره في رثاء قرطبة )[3] ولم يصل الينا منها شيء

ويبدو ان احداث الفتنة لم تقتصر على قرطبة ـ مركز الخلافة ـ بل تجاوزتها الى مدن الاندلس الأخرى . فقد أرخ ابو اسحاق الالبيري الشاعر الزاهد ( ت ٤٦٠ هـ ) . لاحداث خراب البيرة[4] سنة ٤٠٠ هـ . وهي احداث مماثلة لنظيرتها في قرطبة في آثارها السلبية . ويعلل ابو اسحاق تلك النكبة بكثرة الذنوب وترك الفروض والواجبات . وهي في عشرين بيتاً[5] :

يضيع مفروض ويغفل واجبٌ ... واني على أهل الزمان لعاتب
أتندب أطلال البلاد ولا يرى ... لألبيرة منهم على الأرض نادبٌ
فآها الوفا . تقتضي عدد الحصا ... على عهدها ما عاهدتها السحائب

---

( ١ ) البيان المغرب ٢ / ١١٠ ( ط دار الثقافة بيروت ) . فرحة الأنفس ١ / ٢ / ٢٠٦
( ٢ ) البيان المغرب ٢ / ١١٠
( ٣ ) الصلة ١ / ٣١
( ٤ ) إلبيرة : كانت من حواضر الاندلس الجليلة . أسسها عبد الرحمن بن معاوية . واسكنها مواليه . ثم خالطهم العرب بعد ذلك . خربت في الفتنة وانفصل اهلها الى غرناطة وبينهما ستة أميال ينظر الروض المعطار : ٢٨
( ٥ ) ديوانه ٧٣ ـ ٧٥

واين بحار العلم والحلم والندى ؟ وأين الأكف الهاميات السواكب ؟
شققنا على من مات منهم جيوبنا وكان قليلاً أن تشق الترائب
لساءلت عنهم رسمها فأجابني « ألا كلّ شيء ما خلا الله ذاهبُ »

ومما يندرج ضمن هذا الاتجاه الممالك التي رثيت في عصر الطوائف بدخول المرابطين ، وقضائهم على حكامها ، وأشهر مملكتين نظمت فيها قصائد الرثاء ، مملكة بني عباد ، في اشبيلية ، ومملكة بني الافطس في بطليوس .

وقد حظيت الاولى بمكانة رفيعة بين ممالك الأندلس ، حتى نستطيع أن نعدها أقوى ممالكها في عصر الطوائف ، ولذلك اجتمع فيها من الشعراء عدد كثير ، وممن عاش في رخاء بني عباد ، شاعرهم ابن اللبانة الداني الذي احتفظت ذاكرته بصور عميقة الاغوار لآخر ملوكها المعتمد بن عباد فألف بعد زوال ملكه كتابين هما « نظم السلوك في مواعظ الملوك في اخبار الدولة العبادية » وكتابه « الاعتماد في أخبار بني عباد » ولم يصل من الكتابين سوى شذرات متناثرة في الكتب[1] .

وقد تضمن ديوانه قصائد تفيض بمعاني الأسى والأسف على الملك الزائل ، والمجد الحائل ، بعد أن خُسِف بالمعتمد وأسرته ، ورُحل عن إشبيلية منفياً الى أغمات ، في بلاد المغرب ، وأشهر قصيدتين تائية مطلعها[2] .

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من مناياهن غايات

وهي في اثنتين واربعين بيتاً وبعد أن يبكي على دولتهم الزائلة يمنى نفسه في أن تعود ثانية حيث يقول :

لو كان يفرج عنه بعض أونة قامت بدعوته حتى الجمادات
لهفي على آل عباد فإنهم أهلةٌ مالها في الأفق هالاتُ

واما القصيدة الثانية فهي أجود شاعرية ، وأدق في التعبير عن معالم النكبة وأطول نفساً من سابقتها ومطلعها[3] :

تبكي السماء بمزن رائح غادي على البهاليل من ابناء عباد

ونستطيع أن نتعرف على مدى براعة الشاعر في قصيدته بموازنتها على ما نظم من أشعار في هذه النكبة . فبين أيدينا قصيدتان لشاعرين مشهورين .

---

(١) ينظر ما وصل من هذه النصوص النثرية في ديوان ابن اللبانة الأندلسي بتحقيقنا .
(٢) ديوانه ( بتحقيق د . محمد مجيد السعيد ) رقم ١٣ / ١ ، ١٦ ، ٢٠
(٣) ديوانه رقم ٢٦

**الأولى** : لابن حمديس الصقلي الذي كانت تربطه صلات حميمة بالمعتمد بن عباد . فدعاه الوفاء الى أن يوجه قصيدته اليه وهو في سجنه وفيها يقول[1] :

أبادَ حياتي الموتُ ان كنت ساليا ... وأنت مقيم في قيودك عانيا
وان لم أبار المزن قطراً بأدمع ... عليك فلا سُقّيت منها الغواديا
وهل أنا الا سائل . عنك سامع ... أحاديث تبكي بالنجيع المعاليا
قيودك صيغت من حديد ولم تكن ... لأهل الخطايا منك الا أياديا

وفيها يسترسل في الحديث عن محامد المعتمد ومكارمه . ويصف شجاعته وبأسه وجوده ونوءه . والخلاء الذي داهم القوم بذهاب دولته .. وليس له اختيار في القدر الذي نزل به ويختم القصيدة التي جاءت في ستة وثلاثين بيتاً بوصف ممدوحه بانه الحي الذي يستحق الرثاء :

سأدمي جفوني بالسهاد عقوبة ... اذا وقفت عنك الدموع الجواريا
وامتع نفسي من حياة هنيئة ... لانك حي تستحق المراثيا

ومن هنا فان شخصية المعتمد بن عباد . اخذت ابعاد الشخصية الاسطورية ـ بعد نكبته ـ تأخذ الابعاد التي تسبغ على العظماء بعد وفاتهم .

**والثانية** : لابن عبد الصمد وقد نظمها بعد عام من وفاة المعتمد ( ت ٤٨٨ هـ ) وفيها يقول :

ملك المملوك أسامع فأنادي ... ام قد عدتك عن السماع عوادِ

وقد كان هو الآخر من شعراء المعتمد بن عباد الا أن الدراسة المتأنية للقصيدة تبين لنا تأثر الشاعر في داليته بدالية ابن اللبانة . التي نظمت سنة ٤٨٤ هـ . وقد اختار الوزن والقافية وحركة الروي التي التزمها ابن اللبانة في قصيدته[2] .

يستهل ابن اللبانة قصيدته بالحديث عن أفضال بني عباد . ومكارم أخلاقهم . وسجاياهم في الكرم . التي طبعوا عليها . والمنزلة السامقة التي أحرزوها فيصفهم بالجبال . والمزن . وباليانعات التي ذوت أنوارها . ويذهب الى اكثر من ذلك . حين يجعلهم كعبة الآمال . ويعزي الضيوف والنزلاء . كما يواسي الفرسان

---

(١) ديوانه رقم ٢٥

(٢) ديوان ابن اللبانة الاندلسي دراسة وتحقيق ص ٦٢

والابطال . الذين تنعموا في ظل العبابدة . وتبلغ المأساة ذروتها حين يجسم لنا مشاهد مؤلمة . ومناظر محزنة . من ترحيل بني عباد في البحر فيقول :

نسيت الا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العَبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حان الوداعُ فَضَجَتْ كل صارخةٍ ... وصارخ من مفداةٍ ومن فاد
خُط القناع فلم تحجبْ مخدرةٌ ... ومزَقتْ أوجه تمزيق أبراد
سارت سفائنهم والنَوح يَصحبها ... كأنها ابل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد

وهكذا يمضي شاعرنا بهذه النبرة الحزينة . مصوراً مشهد دولة تهوى الى أسفل من عل « ان تناسق التعبير مع الشعور . وتطابق الانفعال مع شحنات الالفاظ . واستنفاذ العبارة اللفظية للطاقة الشعورية هو ما يوصف بأنه عمل من صنع الالهام »[1] .

فقد مضت المأساة على أوجها . وأسرفت ريشة الشاعر في تصوير شدة الفاجعة . فأنك تسمع « كل صارخة وصارخ من مفداةٍ ومن فاد » وتبح الحناجر . وتغص الأصوات بالعويل والصراخ . وتستسلم مع الحادي . حين يسقط في يدها .

ويرى أحد الباحثين أن للالفاظ أهميتها ومزيتها في التعبير الفني وجماله . مستأنساً بأبيات ابن اللبانة فيقول : « فالألفاظ « خُط . ومزقت . وضجت . وصارخ وصارخة » لها من الأهمية في تصوير المشهد . واستنفاد التجربة . بحيث لا ينكرها منكر مهما تعصب لوجهة نظره » ثم يعقب بقوله « وأشهد أني قد اهتزت فرائصي فزعاً . كلما قرأت كلمات ابن اللبانة . كأن هذه الأبيات وأخريات معها سهامٌ نفذت الى مشاعري . فهزتها هزا . ومزقتها أي تمزيق . وأشعرتني بالمأساة التي حلت بالأندلس قبل فلسطين »[2]

والملاحظ أن الشاعر يعتمد في لغته على ضرب من تكرار الحروف . فقد تكرر حرف القاف . وهو من الحروف الانفجارية . خمس مرات في « القناع . مزقت . تمزيق . القطائع . مقطعات » وتكرر حرف الحاء وهو حرف احتكاكي . ست مرات في البيتين الرابع والخامس كما ورد في ثلاث مرات أخرى ... والتكرار ضرب بلاغي يعين على تحقيق الجرس الموسيقي المتناغم مع اجواء القصيدة . وقيمة القصيدة فنياً

---

( ١ ) النقد الادبي ٢٨ .

( ٢ ) في الرؤيا الشعرية ٩٨ .

لا تأتي من أسلوبها فحسب ، انما بزخم العاطفة الذي تزخر به ، « فربما لم نجد في الشعر الأندلسي عاطفة أعمق غوراً ، وأشد لهباً ، عاطفياً من تلك القصائد التي قالها ابن اللبانة ، وابن حمديس ، وابن عبد الصمد في نكبة المعتمد »[١] .

وممن تحدث عن جانب المأساة في دولة بني عباد ممثلاً في شخص المعتمد بن عباد ، الدكتور احمد هيكل[٢] .

ومن تلك الممالك ، مملكة بني الأفطس في بطليوس . وقد سقطت هي الأخرى بدخول المرابطين سنة ( ٤٨٧ هـ ) ، ولم تحظ بعناية الشعراء على نحو ما تقدم معنا في مملكة بني عباد بأستثناء المراثي التي نظمها شاعرها ابو محمد بن عبدون اليابري ( ت ٥٢٠ هـ ) ، وتأتي أشهر قصائده رائيته المعروفة باسم البسامة ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر  فما البكاء على الأشباح والصور

وتتعدد روايات القصيدة لشهرتها ، وذيوعها ، حتى أنها بلغت خمسة وسبعين بيتاً برواية المعجب ، وأحرزت إعجاباً لدى القدماء والمحدثين ، فرأى ابن بسام أنه اقتفى فيها أثر فحول القدماء ، وخالف نهج المحدثين[٣] ، واما المراكشي فقد نعتها بأنها ، « قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التي أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، فجلت عن أن تسامى وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر اليها المشير »[٤] .

وذهبوا الى اكثر من ذلك حين أفردوها بالشروح كما فعل ابن بدرون ، وقد درس شرحه وقام بنشره المستشرق الهولندي دوزي ورأى في ثناء النقاد أمثال ابن خاقان وابن الخطيب مبالغة ، وبعداً عن الحقيقة ، فما لمسه في أسلوبها أنها أثقلت بالزخارف والزينة ، وأنها عجزت عن ان تثير كوامن المشاعر[٥] ، وعن مثل هذا الرأي صدر بالنثيا كذلك فزعم أنها : « فاترة الروح ، مدرسية المنهج »[٦] .

---

( ١ ) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين ١٨٨

( ٢ ) دراسات ادبية ، بحث المعتمد بن عباد الشاعر الملك السجين ٢٧٨ ـ ٢٨٧

( ٣ ) الذخيرة ١ / ٢ / ٨١٨

( ٤ ) المعجب ١٢٨ ـ ١٢٩

( ٥ ) تاريخ الفكر الاندلسي ١١٩

( ٦ ) نفسه ١٦ .

والحقيقة أنها على الرغم من سيطرة الجانب التاريخي عليها ـ ليدل الشاعر على سعة ثقافته ـ جاءت في شوطها الأخير ، تدل على عاطفة جياشة ، إذ يأسف على المجد الزائل ، ويترحم على عزهم المنصرم .

وقد ترجمت القصيدة الى الفرنسية ، والاسبانية[١] . ومن المحدثين أعجب بها عبد الله كنون لا سيما فيما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء ، على ضياع ملك سادته ، وابادة الدهر لهم من غير ان يعرض بخصومهم المرابطين ، ولا أن يتناولهم بأدنى تجريح[٢]» وتتجلى براعة الشاعر في استعراضه للامم السابقة بشكل متكامل متسلسل بدأ بالاقدم فالقديم .

اما الاتجاه الثاني فيتمثل في رثاء مدن اندلسية سقطت بأيدي ملوك الاسبان وكان ذلك نتيجة متوقعة للحال التي بلغها ملوك الطوائف . وقد صوّر لنا هذه الحال المقري نقلاً عن الوطواط ( ت ٧١٨ ) بقوله : « ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الأنقياد والوفاق ، الى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق . فأمتاز كل رئيس منهم بصقع ... فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ، ويحاربه في عقر داره ، الى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي ، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي .. »[٣].

بهذه المقولة استهل صاحب النفح حديثاً تفصيلياً عن رثاء مدن الأندلس الساقطة بأيدي الأسبان .

ومن اعظم الاحداث المبكرة التي نزلت بالأندلس ، نكبة « بربشتر » التي كانت من أمهات مدن الثغر الاعلى حصانة ومنعة . ولكن غزاها أهل غاليش ، والروذمانيون على غرة ، وقلة عدد من أهلها وعدة ، فحاصروها أربعين يوماً ، حتى سقطت سنة ٤٥٦ هـ « وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لاتلحقه الصفة على الحقيقة »[٤]

وعلى الرغم من أن دخول العدو واحتلاله لها لم يستغرق أكثر من تسعة أشهر فأن النتاج الشعري الذي أثمر عن نكبتها كان منمازاً . فقد سحت قرائح عدد من الفقهاء الشعراء في وصف تلك النكبة ، بعد أن تأججت عواطفهم ، لعظم المأساة ، حيث دوّت في أرجاء الأندلس وذاع خبرها فلم يطل أسر المدينة ، وسرعان ما انتظمت في

---

(١) نفسه ١١٩

(٢) الشعر الاندلسي ، مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٥٦ ٢١ / ٢ / ٢٨٠ ، ٢٩٦

(٣) نفح الطيب ٤ / ٤٤٦

(٤) النفح ٤ / ٤٥٠

سلك اخواتها . في ظل حكم المسلمين . وتتصدر هذه القصائد أبيات الفقيه ابن العسال الألبيري ( ت ٤٨٧ هـ ) وما بين أيدينا منها اثنا عشر بيتاً[١] .

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الإصماء
هتكوا بخيلهم قصورَ حريمها ... لم يبق لا جَبل ولا بَطحاءْ
جاسوا خلال دِيارهم فلهم بها ... في كلّ يومٍ غارةٌ شعواء

ولا يلبث الشاعر أن يعرض بعامّة المسلمين وحكّامهم . ويعزو جسامة النكبة . الى ضعف وخور حالهم . وشيوع الذنوب بينهم . وكنت قد عرضتُ للقصيدة . بما فاضت من معان اسلامية وغيرة دينية . في الذود عن المسلمين في موضع سابق[٢] .

واما الشاعر الفقيه الثاني الذي استثارته هذه النكبة فهو أبو حفص عمر الهوزني[٣] ... وكان له شأن آخر . يختلف فيه عما عهدناه لدى شعراء رثاء المدن والممالك من الاستسلام للبكاء وندب الأعزة والوقوف على معارض المدينة المروعة . ومصارع القوم فيها . بل نجده يبحث عن الدواء للمدينة المهيضة الجناح .. فأخذ يخاطب أولى الأمر وأرباب الدواء ليطفئوا جمرة صدره . ويشفوا غليل المسلمين . وقد حفظ لنا ابن بسام فصولاً عديدة من رسائله في خطاب المعتضد العبادي . وكانت رسائله تلك حمماً بركانية في استنهاض الهمم واستجاشة العواطف . وكان يضمنها مقطعات من شعره وهي أدخل في باب الجهاد والاستنفار من شعر رثاء المدن والممالك . ولعله كان يخاطب القادر احمد بن هود بقوله :[٤]

أيا أسفاً للدين إذ ظلّ نُهبةً ... بأعيننا والمسلمون شهودْ
ويُثلبُ بيت الله بين بيوتكم ... وقادره عن رد ذاك قعيدُ

---

(١) الروض المعطار ٩٠

(٢) الاتجاه الاسلامي ٢٢٣ ـ ٢٢٤

(٣) الذخيرة ٢ / ١ / ٨١ ـ ٨٢ يستفاد منها انه كان من أعيان اشبيلية ، ذات نفسها ، وناجذها الذي عنه تبسم ، وواحدها الذي بيده ينتقض ويبرم ، وكانت صلته بالمعتضد ـ قبل ان يتولى رياسة اشبيلية ـ قوية ، ومتينة وما بينهما « التلاف الفرقدين ، وتضافر اليدين ، واتصال الأذن بالعين ، ولكنه كان يوجس منه ذعراً » ، فخرج عن اشبيلية سنة ٤٤٤ هـ في رحلة للحج ، وروى الحديث في رحلته ، فلما عاد استقر في مرسية ، ومنها وجّه رسالته الى المعتضد ، وما لبث أن استدرجه في الرجوع الى اشبيلية ، فكان في رجوعه حتفه ، ولي إيابه مصرعه بعد عامين فقط عام ٤٦٠ هـ

(٤) الذخيرة ٢ / ١ / ٩٢ .

ولم يحدث في تاريخ الأندلس ان تسقط مدينة كبيرة ، مثل طليطلة التي وصفت بانها دار الملك بالاندلس ، كما لم يحدث أن تسقط مدينة مثلها الى غير رجعة مثلما حصل معها عام ٤٧٨ هـ .

وعلى الرغم من المصاب الجلل والخطب الجسيم الذي حل بسقوطها فإن جلّ ما وصل إلينا في رثائها لا يتجاوز نصين هما :

**الأول** : في أربعة أبيات لعبدالله بن العسّال ( ت ٤٨٧ ) ـ تقدمت معنا أبياته في نكبة بربشتر ـ وكان قد رحل عنها الى غرناطة فقال[١] :

يأهـلَ أندلـس حـثّوا مَـطـيَـكـمْ ... فما المقامُ بها إلا من الغَلطِ
الثوب ينسلّ من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ

فهل يدعو الشاعر في أبياته الى الانهزامية ؟ إن الأمر ليس كذلك بل هو اسلوب في التعبير مبالغة في التنبيه والتذكير ، اذ ليس من المعقول أن يدعوا الشاعر الى التولي يوم الزحف ، وهو الزاهد الفقيه[٢] ، وسنلاحظ أن مثل هذه الدعوة ستتكرر على ألسنة شعراء آخرين ، باصرار أشدّ بعد تردي احوال الجزيرة في مطلع القرن السابع الهجري ، هذا ابو اسحاق بن الدباغ الاشبيلي يقول ، في جملة ابيات بعد وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ[٣] :

فما في أرض أندلس مقامٌ ... وقد دخل البلا من كل باب

وقد وجدنا نبرة أخرى تعبر عن النكبة وتحاول أن تجيب عن السؤال الذي كان معادلة صعبة لأبناء المدن الأندلسية الساقطة بأيدي الأسبان ، أيهما أفضل البقاء في المدينة في ظل الأعداء ام الخروج منها ؟ ومن هؤلاء الشعراء ابو المعالي الاشبيلي الفقيه الواعظ الذي مال الى طرف المعادلة الثاني ، وخرج عن بلاده ، وكان مما انشده بمسجد رحبة القاضي قوله[٤] :

أنا في الـغربة أبـكـي ... ما بـكـتْ عـيـن غريـبِ
لـم أكـنْ يوم خروجـي ... مـن بلادي بـمـصـيـبِ

---

( ١ ) نفح الطيب ٤ / ٤٤٧ .
( ٢ ) ملامح من النقد السياسي ص ٢٥٨
( ٣ ) النفح ٤ / ٤٦٤
( ٤ ) النفح ٤ / ١١٣ ـ ١١٤

عـجـبـاً لـي ولـتـركـي وطـنـا فـيـه حـبـيـبـي

ان الماكث في المدينة كان يشعر بالمرارة والندم بسبب بقائه في دار الحرب . ولم تكن الحال افضل عند من يغادرها على نحو ما رأينا .

واذا كان الأشبيلي الفقيه . اتخذ قراره فخرج ثم شعر بالندم . فان الحيرة والتردد استوليا على غيره على نحو ما صور ذلك الجزار السرقسطي . حين أزمع رجل الرحيل من سرقسطة فاراً منها حذاراً من العدو . وأبطن أسباب رحيله الحقيقية فأظهر في فراره المسير الى الحج . لكنّ البحر الذي واجهه ثناه عن نيته فجزع وقفل راجعاً[1] !

أمّا النص الثاني ففيه تتجلى فداحة نكبة طليطلة في مرثاة طويلة . لا يعرف صاحبها تجاوزت ابياتها الثمانين ... . ونستطيع أن نعَدها القصيدة اليتيمة . التي جسّدت عِظم النكبة وعالجته معالجة تفصيلية وفيها يقول[2] .

لثكلكِ كيفَ تبتسمُ الثغور سروراً بعد ما سُبيت ثغور
لقد قصمت ظهورَ حين قالوا أميرُ الكافرين له ظهور
أنأ منْ أن يحلّ بنا انتقامٌ وفينا الفسق أجمع والفجور ؟

ونجد الشاعر على حالة من الجزع . وضيق النفس . لما بلغته هذه المدينة من هوان وذل إذ طاش حلمه وذهب يقينه بعد أن غرَّ الشيطان بالقوم :

لقد ذهب اليقينُ فلا يقينٌ وغرَّ القومَ بالله الغرور

ثم نجده يتطلع الى البطل المنقذ ويشيم سيماء النصر مبتهلاً في ذلك الى الله

ألا رجلٌ له رأيٌ أصيل به مما نحاذر نستجيرُ ؟
ونرجو أن يتيح الله نصراً عليهم أنه نعم النصير

ولم تكن نكبة بلنسية أخف وطأة مما حلّ بمدن الأندلس الأخرى . لكنها قد تمثلت بدخول قائد اسباني هو السّيد القمبيطور . بعد حصار طويل استمرّ حوالي عشرين شهراً لآخر رمضان ٤٨٥ ـ منسلخ جمادي الاولى سنة ٤٨٧ هـ[3] حيث أرغم

---

(١) ديوان الجزار السرقسطي ق ٥٠ . ودراستنا حول الديوان ص ٢٨٤ مجلة آداب المستنصرية العدد ١٥ بغداد ١٩٨٧ .

(٢) النفح ٤ / ٤٨٣

(٣) البيان المغرب ٤ / ٣٢ ، ٣٩

قاضيها ابن الجحاف المعافري على التسليم وعقد الصلح . وقد أطنب المؤرخون العرب بايراد تفصيلات عن وصف النازلة العظيمة التي نزلت بساحتها . ومنهم ابن علقمة عصري الاحداث في كتابه « البيان الواضح في الملم الفادح » الذي ينقل منه صاحبا الذخيرة والبيان المغرب .

وتسبغ الرواية الاسبانية على تلك الاحداث المؤلمة . صفة الملحمة . وتنظر الى انها ضرب من ضروب البطولة والمجد . وان الأدب الذي صوّرها أدب ملحمي شعبي[1] .

كانت مدينة بلنسية من اكبر مدن شرقي الاندلس رائعة بجمالها وبساتينها ولذلك تغنى بها شعراؤها . فما كان نصيبها منهم في نكبتها ؟

ان ما بين ايدينا من اشعار لا يمثل الا نزراً يسيراً ـ بل أقل من اليسير ـ وهي ظاهرة عامة في هذا الموضوع والمفترض ان تجود قرائح الشعراء في مثل هذا الموضوع الوجداني النووي .. لفداحة النكبة وجللها .

روت المصادر أن ابا الوليد هشام بن احمد الوقش البلنسي ( ت ٤٨٩ هـ ) الذي كان قاضياً في بلنسية حين دخول العدو فرأى أحداث النكبة وتفصيلاتها الملحمية . ثم قدرت له النجاة فخرج عنها الى دانية[2]. وقد زعموا أنه صعد على أسوار بلنسية فأنشدها[3]

وأصل هذه القصيدة لما يزل مفقوداً . وما بين أيدينا هو ترجمة للنص اللاتيني نشره لاول مرة المستشرق الاسباني خوليان ريبرا . بلغة ركيكة على ضوء مخطوطات مدونة تاريخ اسبانية ثم تقدم الدكتور الطاهر مكي بترجمة النص بلغة سليمة مستعيناً بالنص السابق وبرواية شعبية يجدها منزوية في ديوان يضم قصائد تحمل اسم ( ديوان السيد )[4] .

١ ـ بلنسية ؟ ! ... بلنسية ! ... مصائب كبيرة تحدق بك . انت تحتضرين واذا قدر لنا النجاة . فسيراه عجيباً من يعيش ويراك .

---

( ٢ ) ملحمة السيد ٧٧ . وينظر مقالنا ، نكبة بلنسية بدخول السيد القمبيطور ، مجلة الجامعة العدد ( ٥ ) الموصل ـ شباط ١٩٨٠ .

( ٣ ) تاريخ الفكر الاندلسي ١١٦

( ٤ ) السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين بحث الدكتور حسين مؤنس في المجلة التاريخية المصرية ٣ / ١ / ٣٧ سنة ١٩٥٠ ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١١٦ .

( ١ ) ملحمة السيد ، ص ١٦٤ ـ ص ١٦٦ وينظر دراسات اندلسية ٢٩٠ .

٢ ـ واذا اراد الله خيراً لهذا البلد ، فأملي كبير أن يتولاني برحمته فلقد كنت دواماً موطن الجمال والسرمد ، حيث يعيش المسلمون جميعاً في بهجة ومتعة .
٣ ـ العمد الاربعة التي تنهضين عليها ، يريدون ان يجتمعوا ليهدموها فيحزنوك وما هم بمستطيعين .
٤ ـ سورك العظيم الذي بني مع العمد الاربعة ، ترتج حجارته ويريد أن يقع بعد تضعضع اساسه .
٥ ـ أبراجك السامقة الارتفاع ، الرائعة الجمال ، والتي تلوح من بعيد فتدخل البهجة على قلوب اهلك تقع شيئاً فشيئاً .

وهكذا تمضي القصيدة مستعرضة أبرز المعالم الحضارية التي ازدانت بها بلنسية ، ايام مجدها الباذخ ، وكيف آلت الى الخراب والدمار ، فأصبحت تعبث بها الذئاب ، وأقفر مرساها الجميل ، من السفن التي تغدو اليها ، وكأن الوادي الأبيض غارت مياهه ونضبت وحمئت السواقي الصافية ، وأتت النيران ملتهمة ضياعها الواسعة ، حتى استعصى الداء على المداوى وانقطع الرجاء في الدواء .

ويبدو واضحاً ، أن القصيدة تصور معالم النكبة أثناء الحصار ، وبعده ، وعلى الرغم من فقدان النص الأصيل لهذه المرثية ، فإننا نستطيع أن نلمح معالم التجربة الفنية ، والصدق الشعوري ، فاذا كان من خصائص التجربة الشعرية الصادقة انها ترفعنا اليها ، لتمنحنا القدرة على الانفعال ، فأن في هذه القصيدة على فقدانها الكثير من عناصر التجربة ، لا سيما الوزن والقافية ـ ما يحقق الانفعال ، الذي هو غاية التجربة ، كما يحقق الصدق الفني ، الذي هو صدق الشعور ومطابقته لوجدان الشاعر .

وتمضي ثماني سنوات عجاف ، على استيلاء السيد القمبيطور ، تخضع فيها المدينة للنفوذ القشتالي ، حتى يقيض الله لها جيش المرابطين ، بقيادة ابي محمد عبدالله بن مزدلي ابن عم يوسف بن تاشفين ، فتتعرض المدينة لنكبة ثانية وخراب جديد إذ يأبى السيد القمبيطور مغادرتها الا بعد ان يحيلها ركاماً ... ولا تجود قريحة مواطنها ابن خفافة البلنسي الا بأبيات أربعة قائلاً[١] ،

عاثتْ بساحتكِ العِدا يادارُ ومحا محاسنك البلى والنّار
فإذا تردد في جنابكِ ناظرٌ طالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ

(١) ديوانه ٢٥٤

أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتَـمـخَـضـتْ بـخرابـها الأقدارُ
كتبت يدُ الحدثان في عَرَصاتها « لا أنت أنت ولا الديار ديارُ »

ولا يختلف الأمر كثيراً عند شاعر بلنسي آخر هو أبو عبدالله محمد بن خلصة البلنسي فيصورها في ثلاثة أبيات [١] :

وروضة زرتـها للأنـس مـبـتـغـيـاً فأوحشتني ذكرى سادةٍ هلكوا
تغيّرت بَعدهم خَرِباً وحُق لها : مكانَ نوارها أن ينبت الحسكُ
لو أنها نَطَقت قالتْ لفقدِهم : بانَ الخليطُ ولم يَرثوا لمن تركوا

ليت شعري هل وفىّ هذان الشاعران بأبياتهما هذه . للمدينة التي كلأتهما بظلالها الوارفة ؟

وتمضي الايام والسنون لتستعيد هذه المدينة مجدها وخيلاءها في ظل الأمن الذي تحقق لها بدخول المرابطين ، والسكينة التي اعقبتها في ظل الموحدين ، حتى يأتي عهدٌ تدور الدائرة فيه على الموحدين ، وذلك في مطلع القر السابع الهجري .

وقدّر لبلنسية ما قدر لمدن الأندلس الأخرى حيث تسقط الى غير رجعة عام ٦٣٦ هـ واذا كان الشعر الأندلسي ضنيناً في تصويره لنكبتيها السابقتين ، فإن نتاجاً غزيراً ـ شعراً ونثراً ـ يصل الينا ليصور نكبتها الثالثة أدق تصوير ، على ألسنة شعراء بلنسيين بروّا بها بعد أن أرضعتهم أخلافَها ، وأطعمتهم خيراتها ، وحقّ لهم هذا الوفاء والاخلاص .. لامثالها .

وفي مقدمتهم ابو عبدالله بن الابار البلنسي ( ت ٦٥٨ ) الذي اشتهرت صرخته السينية التي مثل بها حاكم بلنسية ( زيان ) عند صاحب افريقية ابي زكريا بن أبي حفص ، فقام بها بين يدي السلطان منشداً وهي تعد فريدة في باب شعر الاستغاثة والاستنجاد « فضحت من باراها ، وكبا دونها من جاراها »[٢] وقد جاءت في سبعة وستين بيتاً برواية نفح الطيب ومطلعها ، [٣]

ادرك بخيلك خيل الله اندلساً ان السبيل الى منجاتها درسا

---

( ١ ) الروض المعطار ٩٧ وفي ترجمة الشاعر ينظر الجذوة ٤٩ ، التكملة ، ٢٩٥
( ٢ ) نفح الطيب ٤ / ٤٥٧
( ٣ ) نفسه ٤ / ٤٥٧ ـ ٤٦٠ ، كذلك العبر ٦ / ٢٨٣ ، ازهار الرياض ٢ / ٢٠٧ وجاءت بعض أبياتها في الروض المعطار ١٠٠

وفيها تفصيلات قيمة عن طبيعة النكبة التي حلت بلنسية ، بله مدن الأندلس :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدّها تعسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسماً ... جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً ... وللنداء غدا أثناءها جَرَسا

وينتقل الى خطاب ابي زكريا مستجيشاً نخوته الاسلامية ، وأصالته اليعربية لاستنهاض المدينة المهيضة الجناح وتطبيب جراحها :

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلاً ولا حرسا
هذي رسائلها تدعوك من كتَبٍ ... وأنتَ أفضل مَرجوٍ لمن يئسا
وافتك جارية بالنَجح راجية ... منك الامير الرضى وألسيد النَدسا

ويمضي في مدح امير افريقية حتى يقول :

يا ايها الملك المنصور أنتَ لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
طهّر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخسا

وقد وصف القصيدة الدكتور احمد امين بانها قوية طويلة تفيض بكاء[1]

واذا كانت سينية ابن الابار قد ذاعت واشتهرت مقرونة باسم صاحبها[2]، فان قصيدته الثانية الهمزية المردفة بالالف الموصولة بالهاء مع الف الخروج ، القصيدة التي لا تقل مستوى فنياً عن سابقتها كانت نفثة أخرى لابن الابار ، ومطلعها :

نادتك اندلس فلبّ نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها

تجيء أطول نفساً من سينيته حيث جاءت في تسعين بيتاً ، وقد ظلت مجهولة الهوية لدى العديد من الدارسين[3]. لانها عرفت اول ما عرفت في كتاب نفح الطيب للمقري الذي أوردها دون عزو ، وظل قائل القصيدة مجهولاً حتى قيض الله

---

(١) ظهر الاسلام ٢ / ٢٨٦

(٢) اختصار القدح المعلى ١٩١ .

(٣) ينظر الادب الاندلس ، موضوعاته وفنونه ٥٢٧ ، ملامح الشعر الاندلسي ٢٠٦ ، الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، وممن تنبه او نبه الى نسبة القصيدة الى ابن الابار د . الطاهر مكي في كتابه دراسات اندلسية ١ ـ ٢

للدكتور عبدالسلام الهراس نشر ديوان شاعر بلنسية ابن الابار . فطالعتنا القصيدة في اول قصائد الديوان .

ولا نستطيع أن نقدر الفاصل الزمني بينهما لكنّ الراجح في الظن أن السينية اسبق في النظم لانها أشدّ حرارة من الهمزية . واوفر نصيباً من اعتمال العاطفة وغلوائها ـ لكن الهمزية لا تتأخر كثيراً عن السينية في العاطفة او البناء والمعاني التي ادار عليها الشاعر أبياته ... وقد قدم الدكتور الطاهر مكي دراسة وافية عن القصيدتين السينية والهمزية[1] .

وكان من أثر ذلك أن استجاب ابن ابي حفص . وجهز الاساطيل . ولكن الغوث والمعونة ـ على نحو ما تذكره المصادر ـ وصلا متأخرين . بعد فوات الاوان .

ومما جاء لابن الابار في هذه النكبة . فيما نطالعه في ديوانه . قصائد كثيرة . واكثرها تجري في باب المقطّعات وليس ذلك على ابن الابار كثيراً ولا بمنكر .. وهو البار بوطنه . ويسوق لنا المقري[2] رسالة له يخاطب بها ابا المطرف بن عميرة . حديثة حديث المتذكر لأيام الشباب . المتشبث بالاوطان . بعد أن ودّعها وداع الابن . واخنى عليها الذي اخنى على لُبد . ويضمن رسالته بيتين من قصيدة بلغت ثلاثة وعشرين بيتاً :

كزعزع الريح صكّ الدوحَ عاصفُها ... فلم يدع من جنى فيها ولا غُصُنِ
واها وآها بموت الصبر بينهما ... موت المحامد بين البخل والجبنِ

وهي اطول قصيدة بعد سينيته ـ في هذا المقام ـ وتتسم قصائده بسمتين اولاهما : الندب والبكاء . والأسف والحسرة . فقد استهل نونيته السابقة بقوله[3] :

وطن على الدائبين : الدمع والشجن ... يانادب الذاهبين : الاهل والوطن
هذا فؤادي كالبرق الخفوق اسى ... وهذه أدمعي كالعارضِ الهتنِ
براحتي رايةُ الاشجان أحملها ... وان غدا الجسم وهنا ليس يحملَني

وثاني السمتين . عند ابن الابار في هذه القصائد . امتزج البكاء بالذكريات العبقة . حيث الجنان التي ارتسمت صورتها في مخيلته هو ذا يقول :

---

( ١ ) دراسات اندلسية ٢٩٥ ـ ٣٠٦

( ٢ ) النفح ٤ / ٤٩٧ ، الروض المعطار ١٠٠

( ٣ ) ديوانه ق ١٤٩

وجنة حلّ اهل النار ساحتها لم يغن حَمل القنا عنها ولا الجنُن
وجدى بها وبعيش في حدائقها وجد الذي أرّقت عيناه بالوسن

والقصيدتان الاخريان دالية في اربعة عشر بيتا وعينية في اثنى عشر بيتاً ، يقول في الاولى مستخدماً صيغة الماضي في تذكر الجنان والمرابع[١] :

كلما هبست الصبا ذكر الشو قَ ففاضت عيناه شوقاً ووجدا
يا سقى الله للرصافة عهداً كنسيم الصَبا يَرِق ويندى
ليت شعري هل يرجع الدهر عيشاً يشهد الطيب انه كان شهدا
حيث كنا نغازل النرجس الغـ ضَ جفونا ونهصر الآس قدا

ويقول في عينيته[٢] :

أبينَّ وأشتياق وارتياع ؟ لقد حُمّلتُ ما لا يستطاعُ
ورؤّعني الفراق على احتمالي ومن ذا بالتفرق لا يراع
فالعبرات بعدهم انحدارٌ وللزفرات اثرهم ارتفاع

وفي الديوان ـ فضلاً عما تقدم ـ ست مقطعات[٣] يكفي أن نشير الى بعضها المتميز ، فمن ذلك قوله في حائيته التي يلاحظ فيها سمة الجناس في أبياتها[٤] .

ملكت جوارحه عليه جراحه فشفاؤه لا يُرتجى وسراحه
لم يعترضه مساؤه بمساءةٍ الا وضاعفها عليه صباحه
قد اسلم الاسلام فيه الى العدى فأساه برح لا يتاح براحه

ويقول في الأخرى[٥] :

لامَ المحبّون الفراق ولمتُه لكنهم سئموا ولمَا أسأمِ
فعليَّ فلتبكِ البواكي ، انني أخرجت من وطني ولست بمجرمِ
لا أستريح بغير ليل أليلِ اشكو تطاوله ويوم أيوم

---

( ١ ) ديوانه ق ٧٧
( ٢ ) نفسه ق ١٧٠ .
( ٣ ) ينظر ديوانه ق ، ٥٧ ، ٨٩ ، ١٢٥ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ » .
( ٤ ) ديوانه ق ٥٧ .
( ٥ ) ديوانه ق ١٢٥ .

ونراه يعود ثانية الى آثار الفراق في نفسه ، وكان مما أجج كوامن عاطفته ، بعده عن اسرته وعدم استطاعته العودة اليهم فهي أزمة تذكر بأزمة ابن حمديس الصقلي[1] :

أيا أسفى على عدم الهجوع ... وفقدان الأحبة والربوع
يشق عليّ عن أهلي نزوحي ... ويغلبني الى وطني نُزوعي
فكم أبكى الديار وساكنيها ... بطرف مسعدٍ ودمٍ هموع

ولا يملك الا التشبث بوطنه ، والدعاء له بالسقيا ، على البين المشت[2] :

بلنسية يا عذبة الماء والجنى ... سقيت وان أسقيت صوب الرواجس
ومن عجب أنّ الديار أو اهلّ ... وأندبها ندب الطلولِ الدّوارسِ

وعلى الرغم من أن ديوان ابي المطرف بن عميرة ( ت ٦٥٨ هـ ) ليس بين ايدينا ، فأن ما نقله مؤرخو الادب عنه يدلنا على أنه لم يكن أقل وفاء لوطنه ومسقط رأسه ، فقد روي الحميري أن سقوط بلنسية ترك أثراً كبيراً « فأكثر ادباؤها بكاءها والتأسف عليها نظماً ونثراً »[3] ومما كتبه ابو المطرف اربع رسائل اوردها الحميري متوالية ، جاءت الاولى موجهة الى ابن الآبار ، ويغلب ان تكون الثلاث الباقيات كذلك وقد ضمن رسالتيه الثانية والثالثة ، ثلاث مقطعات في ستة أبيات ، على وزن الدوبيت يظهر فيها معاني الاسى والأسف اذ يقول[4] :

اين الصبر وفؤادي أنسيه ... لم يبق لقومه على الرمي سيه
هيهات يحور ما مضى من إنسيه ... من بعد مصاب حلّ في بلنسيه

وأما رسالته الرابعة فهي مستهلة بالنثر تعقبها قصيدة رائية رائعة في خمسة عشر بيتاً ، تعد من القصائد المنمازة ، حيث تفيض جزعاً ولوعة وتفجعاً وفيها يقول[5] ،

ما بال دمعك لاينى مدراره ... ام ما لقلبك لا يقر قراره ؟
ألوعة بين الضلوع لضاعن ... سارت ركائبه وشطت داره
ام للزمان أتى بخطب فادح ... من مثل حادثه خلت اعصاره

---

( ١ ) ديوانه ق ١٧١ .
( ٢ ) ديوانه ق ١٨٦ الاصل : « أشقيت » وهو تصحيف وارتجت السماء اذا رعدت شديداً .
( ٣ ) الروض المعطار ص ٩٧ .
( ٤ ) نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .
( ٥ ) الروض المعطار ٩٩ .

بحر من الاحزان عب عبابه وارتج ما بين الحشا زخاره
اما بلسنسية فمثوى كافر حفت به في عقرها كفاره

وبين ايدينا قصيدة رائية اخرى لابي المطرف اطول من سابقتها جاءت في اكثر من ثلاثين بيتاً ومطلعها[1] :

أقلوا ملامي أو فقولوا واكثروا ملومكمُ عما به ليس يقصر

وفيها يظهر جزعه واساه على مدينته الباسلة ويندب معاهدها التي تغيرت ودورها التي اقفرت ويشبه نفرته وبني قومه عن منازلهم بنفرة الحجيج من المحصب .

ويندب عهداً بالمشقر فاللوى وأين اللوى منه ؟ وأين المشقر
وأقفر رسم الدار إلا بقية لسائلها عن مثل حالي تخبر
فلم تبق إلا زفرة إثر زفرة ضلوعي لها تنقدّ أو تتفطر
كفى حزناً أنا كأهل محصب بكل طريق قد نفرنا وننفر

ويستعرض شريط الذكريات ، في مخيلته ، ليتنفس من خلاله الصعداء . فيستعرض تلك الأماكن العبقة المزدانة بالجمال ، مغانيها المغدقة ، وملاعبها المؤنسة ، وانهارها التي أمست آزائها معاهد القوم بحيث يصفو أنسهم بها ، فيقول :

ليال بماء الورد ينضح ثوبها وطيب هواء فيه مسك وعنبر
وبالجبل الأدنى هناك خطى لنا إلى اللهو لا تكبوا ولا تتعثر
جناب بأعلاه بهار ونرجس فأبيض مفترُّ الثنايا وأصفر

ثم يعود ليسدل السّتار على تلك الهناءة وايام السعادة والبلتهية فيقول :

كذاك الى أن صاح بالقوم صائح وأنذر بالبين المشُت منذرُ
وفرقهم أيدي سبا وأصابهم على غرة منها قضاء منقدر

---

(١) النفح ٤ / ٤٩٣ ، ولابي المطرف قصائد اخرى في هذا الاتجاه ينظر ابو المطرف بن عميرة ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

ويبدو أن بلنسية تعرّضت في حياتها الى ازمات ونكبات . وذلك ما جعل ابا عبد الله محمد بن عياش التجيبي ( ت ٦١٨ هـ ) يتشاءم من ذكرها . ويتمنى فراقها حيث يقول[١] :

بلنسيةُ بيني عن القلبِ سَلوةً فأنك روضٌ لا أحنّ لزهركِ
وكيف يحب المرء داراً تقسّمت على صارمي جوعٍ وفتنة مشركِ

ومما يتصل برثاء بلنسية . إصابة قرية من أعمالها في وقعة « بطرنه » وذلك سنة ٤٥٦ هـ وقد التقط وصفها ابن بسام من فم من شهدها بعد أن جهد في التعرف على خبرها عند ابن حيان فلم يجده وقد كان مصاب المسلمين في نفوسهم واموالهم بتلك النكبة عظيماً وكان السبب في نزولها بهم . استهانتهم بالعدو وغفلتهم عن التدبير لشأنهم . وتغريره بهم حتى انهم خرجوا الى لقائه على نحو ما يصف الكميت وقد يتمثل به ابن بسام[٢] :

يمشون مشى قطا البطاح تأوداً هيف الخصور رواجح الأكفال

وجل ما حفظته كتب الأدب في تلك الوقعة بيتان لابي اسحاق ابراهيم بن المعلى صورا ابلغ تصوير هزيمتهم النكراء . وفي البيتين من الدلالة . ما يعرض عما قيل فيها وفقد[٣] :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم الوانا
ما كان اقبحهم واحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

وقد ساق ابن بسام البيتين في باب « الايماء » الذي هو ضرب من فنون البديع . وعدّه من غرائب الشعر وملحه[٤] .

---

( ١ ) زاد المسافر ١٣٦ وينظر الروض المعطار ١٠١ . وقد امتعض من هذا القول الشاعر البلنسي ابو الحسن بن حريق ( ت ٦٢٢ هـ ) فقال مجاوباً :

بلنسية نهاية كل حسن حديث صحّ في شرق وغرب
فإن قالوا محل غلاء سعر ومسقط ديمتي طعن وضرب
فقل هي جنةٌ خفّت رباها بمكروهين من خوب وحرب

ينظر في الابيات المصدران السابقان والنفح ١ / ١٨٠ .

( ٢ ) الذخيرة ٣٥ / ٢ / ٨٥٦ .

( ٣ ) الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٥٠ . النفح ١ / ١٨١ .

( ٤ ) الاخيرة ٣ / ٢ / ٨٥١ .

واذا كنا قد وقفنا عند بلنسية وما قيل فيها من أشعار . فأن شقيقتها « مرسية » سقطت بعد خمس سنوات من سقوطها . وذلك ( ٦٤١ هـ ) . وقد رثيت هي الأخرى في قصائد منها قصيدة ابن الجنان المرسي ( ت ٦٤٨ هـ ) الفائية التي قالها في رثاء ابيه ثم مزجها برثاء مسقط رأسه ومرتع شبابه في حوالي عشرين بيتاً . ومنها قوله :[١]

يا غرْبة جرّها . والدار مكتئب ... صرّف من الدّهر عن أوطاننا صَرَفا
إذ صار فيهن دينُ الحقّ مغتربا ... يرتاعُ إن صدّ ناب الكفر أو صَدَفا

ولشدة تعلقه بآثار « مرسية » التي توافق من نفسه مأربا . يحدثنا عن مسجد المدينة فيقول :

ويا لمرسية الغراء من بلدٍ ... أضحى مُنيراً وأمسى نُوره خُسِفا
ويا لجامعها الأعلى لقد وَضعت ... منه مجاورة التثليث ما شرفا
أذ كنت أشهدُ أطراف النّهار به ... مع المصلي وليلا أشهد الزُلفا
جاورتُ منه جمانا كان مجتمعا ... لبهجة الدين والدنيا ومؤتلفا

ويعود ليصارحنا بدخيلة نفسه ويحدثنا عن موضوع أطال الوقوف عنده شعراء الاندلس ـ كما تقدم بنا ـ ذلكم هو « الرحيل » و « الفرار » . اذ لم يكن خواراً منهزماً :

فاذا رأيت أموراً كلها تلف ... فررتُ لله كيما آمن التلفا

ونقتصر على هذه القصيدة في رثاء مرسية . . إذ لم يتح لنا استقصاء ما قيل فيها . .

وأما اشبيلية التي سقطت بعد شقيقتها « مرسية » بأربع سنوات سنة ٦٤٥ هـ فليس بين أيدينا في رثائها الا قصيدتان : الاولى : لابن سهل الاندلسي ( ت ٦٤٩ هـ ) وهي قصيدة تدخل في باب استنهاض الهمم وشحذ العزائم . يستنفر فيها الشاعر عن والي اشبيلية ابو عبد الله بن ابي عمران عربَ المعقل وهي في ثلاثين بيتاً ومطلعها :[٢]

---

( ١ ) ديوانه ( مخطوط ) ت ٢٧
( ٢ ) ديوانه ق ٤١ ص ١٤١ ـ ١٤٢

وِرداً فمضمون نجاح المصَـدر هي عزّة الدّنيا وفوزُ المحـشرِ

وكانت الأوضاع العامة للجزيرة الأندلسية . تنذر بالاخطار الجسيمة . ولذلك يدعوهم الى الاستبسال والتضحية فيقول :

يا معشر العرب الذين توارثـوا شِيَمَ الحمية أكبراً عن أكبـر
إنّ الاله قد اشترى أرواحـكم بيعوا . ويهنِكُمُ ثوابُ المشتـرى
وعـلا الجزيرة غيهبٌ وغمودكـم مطويةٌ فوق الصّباح المُسفِرِ
لم يبق للاسلام غيرُ بقيةٍ قد وطنت للحادثِ المتنكّـر
والكفر ممتد المطالع . والهدى مـتـمـسـك بذناب عـيـش أغـبرِ
كم نكروا من معلم . كم دمّـروا من مَعشر . كم غيّروا من مشعـرَ

واما القصيدة الثانية فهي أبلغ في الدلالة على رثاء المدينة . اذ انها نظمت اثر اشتداد حصار الاذفونش لمدينة اشبيلية سنة ٦٤٥ . واشتداد أزمتهم بقلة ارزاقهم . وانعدام الطعام ... فخاطب ( ابو موسى هارون بن هارون ) في أكثر من ستين بيتاً . أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد والمسلمين من أهل عدوة المغرب يستصرخونهم ويرغبونهم في نصرتهم ومطلع القصيدة :[1]

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى لم يرع فيك الردى إلا ولا ذِمما

والروح السائدة في القصيدة هي الحزن واللوعة والبكاء بنكبة المسلمين في مدينتهم . والأستسلام لقضاء الله وقدره فيها . وتشخيص أدوائها التي انتهت بها الى ما انتهت اليه :

يا سائلي عن مصاب المسلمين بها اصخ لتسمع امراً يورث الصمما
لما تفرقت الأهواء واضطرمت نارُ البغاة فقامتْ للردى علما
يا حسرةَ الدين والدّنيا لأندلس مهما استطال بها التثليث واجترما

ومما خاطب به امير المؤمنين قوله :

فالمفزع الله والذّخر العتاد أمير المؤمنين . وحسبي في النّجاء هما
خليفة الله لولا النأي عنك لما أجزت فيّ لدهر جاز إذ حكما
وكنت كاشف كرب لا انكشاف له وقمت ودوني[2] من الاعداء منتقما

---

(١) البيان المغرب . القسم الموحدي ٣ / ٢٨٢ ـ ٢٨٥

(٢) الاصل « وقمت دوني » والصواب ما أثبتناه .

لقد قطعنا شوطاً طويلاً . ونحن نستعرض نكبات الاندلس في معاقلها وحواضرها واشعار الشعراء التي قيلت فيها . ونستجلي أوجه الشعراء منها ومواقفهم المختلفة . والصور التي انعكست بسبب تلك النكبات . وما يزال امامنا نتاج ضخم لا يقترن بسقوط مدينة معينة وثغر محدد . بل قصائد كثيرة حكت لنا نكبة المسلمين بسيطرة الاسبان عليها .

وأول سمة لهذه القصائد ان نبرة الرثاء والتأبين تختلط بموضوعين آخرين اولهما النقد السياسي والاجتماعي . وللصلة القوية والوشيجة المتينة بين الموضوعين . فقد كان الشاعر في منحاه التحليلي والتشخيصي لاسباب سقوط مدن الأندلس .. يلج هذا الباب باسلوب صريح تارة . وبالكناية والتعريض تارة أخرى . ومن الضرب الاول ما عرف به ابو القاسم خلف الالبيري المعروف بالسميسر[1] . وابو عبد الله محمد الفازازي ( ت ٦٢١ هـ ) الذي وصلت له مقطعة في اربعة ابيات[2]

وأما الموضوع الثاني الذي تتلابس به قصائد الرثاء . فهو الحنين والشوق الى ذكريات الشاعر العبقة في تلك الربوع التي أصبحت بلاقع . وتلك المدارس التي خلت من تلاوة . وقد لاحظنا في القصائد التي سقناها آنفاً . أنها تعج بهذه المعاني ولاسيما قصائد ابن الابار .

لقد وجد الدكتور مصطفى الشكعة ان جملة قصائد رثاء المدن والممالك الأندلسية اتسمت بسمات عامة هي[3] :

١ ـ عزا الشعراء أسباب سقوط الاندلس فيما عزوا الى الترف الشديد الذي أنغمس فيه الاندلسيون وفساد الحكم وظلم الناس والجور والاستبداد .
٢ ـ الحنين الشديد للمدن الساقطة .
٣ ـ تنبيه العاطفة الدينية ممزوجة بالعاطفة الانسانية .
٤ ـ استصراخ الشاعر وطلب النجدة من المسلمين .

وأضاف الى هذه السمات الاربع سمتين اثنتين . لم تكونا موضع التزام عند كل الشعراء هما :

---

( ١ ) تنظر ابياته في الذخيرة ١ / ٢ / ٨٨٥ وفي النفح ٤ / ١٠٨
( ٢ ) النفح ٤ / ٤٦٧ .
( ٣ ) الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

١ ـ اصطناع الحكمة والحديث عن مصائب الدهر .
٢ ـ رثاء الدول من خلال رثاء ملوكها .

ان بعض قصائد الرثاء يأتي جزءاً من قصيدة . وبعد أن تقدم بنا آنفاً الوقوف على رثاء مدن الاندلس . واحدة تلو الأخرى . في تسلسل زمني متقارب وذلك منذ مطلع القرن السابع الهجري . على أن بعض قواعد الأندلس ومدنها سقطت منذ اواخر القرن الخامس الهجري . ومن المصادر القديمة التي أرّخت سقوط مدن الاندلس نفح الطيب للمقري[١] ومن المحدثين قدم لنا الاستاذ محمد عبد الله عنان جدولاً تاريخياً لسقوط احدى وثمانين مدينة وقاعدة اندلسية[٢] مرتباً هذه المدن وفق حروف الهجاء ..

ولكأننا امام شجرة مثقلة بالثمار مزدانة بها تخطر في خيلاء ونعماء . ولم تزل كذلك يستمتع بها الناظرون ويهولهم ما هي عليه فاذا هي . تنفض ثمارها في غير ما أوانها . وتساقط أوراقها لا من هرم او شيخوخة .. فقد تساقطت هذه المدن تساقط الشهب . وهي أشد ما تكون لمعاناً وبريقاً . فخسف نورها . وكسفت بشاشتها وبهجتها بدخول الاسبان ... دعك عن الروع والهلع الذي حلّ بها بعد أمنها وطمأنينتها ...

تألبت اوربة مع اسبانية على مدن الاندلس فاخترمتها واحدة تلو الاخرى .. وانتهت دولة الاسلام في الاندلس فريسة سائغة . وغنيمة باردة لحكام قشتالة وليون والنافار بعد أن فل عضدهم . وفتت قواتهم وبأسهم .. بتفرقهم .. ونزوعهم الى الملذات وخلودهم الى الترف وتقاعسهم عن الأخذ باسباب النصر . على نحو ما اشاروا اليه في قصائدهم .

وأما ما نظم في رثاء الاندلس جملة . من قصائد . فهي بحدود خمس . تتصدرها شهرة وذيوعاً نونيه الرندى التي مطلعها :

لكل شيء اذا ما تم نقصان  فلا يغرّ بطيب العيش انسان

لقد ذهب النقاد في الاعجاب بها مذاهب كثيرة . ووقفت عندها دراسات كثيرة .. وليس من شك في انها من الناحية الفنية تأتي في مقدمة قصائد رثاء الاندلس . ذلك لأنها تفيض لوعة وحزناً وتعج بالمشاعر والعواطف ازاء الاندلس . ومن الغريب ان

---

( ٢ ) النفح ٤ / ٤٦٠ ـ ٤٧٢ .
( ٤ ) الآثار الاندلسية الباقية ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

يقدم الدكتور أحمد امين[1] رائية ابن عبدون عليها ، وقد مرت بنا ، وعلمنا أنها كانت معرضاً تاريخياً للاحداث البشرية منذ اقدم عصورها .. لكن نونية الرندى ، تفيض بالعواطف والمشاعر .. ، وهي سمة رئيسة في الشعر الجيد ، لا نجد لها بعداً عند ابن عبدون .

ومن الدارسين المحدثين ، قدم الدكتور عمر الدقاق دراسة عن القصيدة فبسط معانيها التي دارت فيها وابرز خصائصها التي تميزت بها ، وقد اشار الى انها تتوجه بالاستنجاد والاستصراخ في اطار من مشاعر الاسى والمرارة مسربلة بغلاله خفيفة من السخر والتقريع ، انها صرخة استغاثة لاولئك الناعمين بالطمأنينة والراتعين بالدعة وراء البحر[2] ـ ولعل اوفى الدراسات التي قدمت عنها دراسة الدكتور الطاهر احمد مكي[3] .

وأما القصيدة الثانية التي طبقت اصداؤها الخافقين فهي رائية مطلعها :

احقا خبا من جو رندة نورها وقد كسفت بعد الشموس بدورها

جاءت في مائة وأربعة وأربعين بيتاً .. وقائلها مجهول ويبدو انه من المرية التي سقطت عام ٨٩٤ هـ وان اسمه فيما يرجح جعفر بن خاتمة ، وهي نداء من النداءات الكثيرة التي وجهت الى السلطان العثماني بايزيد الثاني[4] . ومن الدراسات المبكرة التي وقفت عندها ما كتبه الاستاذ عنان[5] وما كتبه الدكتور الطاهر مكي[6] .

ولعل أبرز ما يميز القصيدة ـ كما يرى الدكتور عمر الدقاق ـ تلك النبرة الدينية العالية التي لا تكاد تفارقها .. ذلك الالحاح على أهمية العقيدة والايمان في ادراك النصر واسترداد الحق امر طبعي في عصر كانت خلاله الحماسة الدينية هي العروة الوثقى والرابطة الأقوى التي تجمع الشمل المبدد والشَعث المفرق . على ان ذلك من جهة اخرى قد اوقع اسلوب الشاعر احياناً بالنثرية[7] .

---

( ١ ) ظهر الاسلام ٢ / ٢٠٧ .

( ٢ ) ملامح الشعر الاندلسي ٢١٤ .

( ٣ ) دراسات اندلسية ص ٢٠٧ ـ ٢٦٠ .

( ٤ ) قصة الادب في الاندلس ١ / ١٣٢ ـ ١٣٨ .

( ٥ ) مجلة الرسالة العدد ١٣٢ ـ ٢ يناير ١٩٣٦ .

( ٦ ) دراسات اندلسية ٢٦١ ـ ٢٨٢ .

( ٧ ) ملامح ٢١٨ ـ ٢١٩ .

ويحتفظ لنا الرعيني في برنامجه قصيدة لابي جعفر احمد بن ابراهيم بن خلف بن الحبيب القرشي العامري ( ٦٢٤ هـ )[١] الذي كان قاضياً بغرناطة وغيرها . قصيدة طويلة في رثاء الاندلس ولعلها تكون اقدم قصيدة تنظر الى مدن الاندلس الساقطة مجتمعة بعد أن وقف الشعراء السابقون أشعارهم على مدن بعينها . وترد القصيدة في الاحاطة[٢] منسوبة الى ابي الشاعر ابي اسحاق ابراهيم بن خلف ( ت ٥٧٢ هـ ) وهي أن تكون للابن اقرب . وذلك لأن سقوط مدن الاندلس في عهد الأب لم يكن مثله في عهد الابن وفيها يقول :

الا مسعدٌ منجدٌ ذو فطن ... يبكي بدمع مُعين هَتَنْ
جزيرة أندلس حَشْرة ... لما غالها من خطوب الزمن
ويندب أطلالها آسفاً ... ويرثى من الشرع ما قد وهن
ويشكى الأيامى وُيبكي اليتامى ... ويحكى الحمام ذوات الشجن
لقد حللتها صروف الردى ... شآبيبُ كربٍ كمثلِ الدَّجن

وقد اشار ابن الخطيب الى طول القصيدة . ونص الرعيني على انها تنيف على المائة بيت[٣] .

وممن رثى الاندلس . ابو جعفر الوقشي البلنسي . وزير ابن همشك في قصيدة يخاطب فيها أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن . وفيها يصف حال الاندلس . ويبعث على الجهاد ومنها قوله[٤] :

الا ليت شعري هل يمدّ لي المدى ... فأبصر شمل المشركين طريدا

ونعتقد أن رثاء الاندلس في قرونه الثلاثة الأخيرة يحتاج الى دراسة تفصيلية تستقري نصوصه وتتبعها .. والاشعار التي قيلت في رثاء الاندلس في ظل دولة بني الاحمر كثيرة . وهي أكثر مما وصل بين ايدينا من رثائها في عصورها الاولى . لأن نكبة الاندلسيين باوطانهم كانت في هذا العهد أشد وأعنف . وقد اتصل بكاؤهم عليها بعد سقوط دولة بني الاحمر كذلك[٥] .

---

( ١ ) برنامج شيوخ الرعيني ١٣٢ رقم ٥٨ .
( ٢ ) الاحاطة ١ / ٣٦٦ .
( ٣ ) برنامج شيوخ الرعيني ، ١٣٣ .
( ٤ ) النفح ٤ / ٤٧٨ .
( ٥ ) علمت أن السيد ابراهيم عبد وهيب يعد رسالة تحت عنوان « شعر النكبة في الاندلس بعد سقوط غرناطة » جامعة محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض ١٤٠٠ هـ .

# المبحث الخامس
# الغربة والحنين

## شعر الغربة والحنين

ومن الموضوعات الجديدة التي برزت في الشعر الأندلسي على نحو جديد وبانت شخصيتها على صورة مختلفة ، وذلك لتأثير البيئة الأندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية ، فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد في القرن الخامس الهجري ، وان كنا نجد صورة مصغرة له قبل هذا العصر .

لقد أشار عدد من الباحثين الى جدة هذا الموضوع[١] ويتصل هذان الموضوعان بجذورهما العريقة الموغلة في التأريخ ذلك لأنهما من الغرائز الفطرية في الانسان ، يرتبطان بالعربي منذ أقدم العصور حتى تواترت في ذلك الأمثال واتصلت الاخبار وقد ورد في الأمثال قولهم : « ميلك الى مولدك من كرم محتدك » وقولهم : « لا تجفُ أرضاً فيه قوابلك ولا تنس بلداً فيه قبائلك » وقالت الحكماء : « حنين الرجل الى وطنه من علامات رشده »[٢] وقد حكى ذلك القرآن الكريم اذ رأى الجاحظ أن مما يؤكد حب الاوطان قوله تعالى : « ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ، ما فعلوه الا قليلٌ منهم »[٣] فسوّى بين قتل انفسهم وبين الخروج من ديارهم وقال تعالى : « وما لنا الا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا » .

وجاء في الحديث الشريف : « حب الوطن من الايمان »[٤] وقد قيل لأعرابي أتشتاق الى وطنك ؟ قال : كيف لا اشتاق الى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها .[٥] ومما قيل : « لولا حب الاوطان لخربت البلدان »[٦] وكانت العرب اذا

---

( ١ ) ابن بسام وكتابه الذخيرة ١١٨ .
( ٢ ) تمام المتون ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .
( ٣ ) الحنين الى الاوطان ٩ .
( ٤ ) تمام المتون ٣٢٩ .
( ٥ ) الوطن في الأدب العربي ٤٨ .
( ٦ ) الحنين الى الاوطان ٩ .

غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع »[١] وقال ابراهيم بن ادهم ( رض ) . ما قاسيت فيما تركت من الدنيا اشد من مفارقة الأوطان .[٢] وقد ضربوا الأمثال بالإبل في حنينها فقالوا : ( لا تدع العرب الشعر حتى تدع الأبل الحنين ) وقالوا : أكرم الأبل أشدها حنيناً الى اوطانها »[٣] .

استخدم المعجم العربي الفاظاً ذات دلالات متقاربة فقد جاء في المحيط الغرب والغربة : النوى والبعد ، وجاء في اللسان غرب أي بعد والتغرب البعد والغربة والغرب النزوح عن الوطن والاغتراب ، وتغرب واغترب تغرباً واغترابا بمعنى واحد .[٤] وذلك لأن صيغة ( افتعل ) تدل ضمن ما تدل من معاني على المطاوعة كما تدل على التصرف ، اي الاجتهاد في تحصيل الفعل .[٥]

وللمعاجم الحديثة تفسيرات لهذا المفهوم ، نفسية ، واجتماعية فقد فسر بأنه عاطفة تستولي على المرء فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبعد عما يهوى أو يرغب فيه .[٦]

وقد تنبه القدماء الى هذه الظاهرة فألفوا فيها وصنفوا كتباً لعل أقدمها رسالة ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ( ت ٢٥٥ هـ ) الموسومة : الحنين الى الاوطان ، وقد افدنا ـ عما قريب ـ من نصوص نثرية كثيرة ، ساقها الجاحظ في كتابه ، وقد تضمن فضلاً عن ذلك مقطعات شعرية كثيرة في هذا المجال .[٧]

---

( ١ ) نفسه ١٢ .

( ٢ ) المنازل والديار ٢١٩ .

( ٣ ) الحنين الى الاوطان ص ٩ .

( ٤ ) القاموس المحيط مادة « غرب » لسان العرب مادة « غرب » .

( ٥ ) عمدة الصرف ص ٢٥ .

( ٦ ) المعجم الأدبي ١٨٦ وفي معجم علم الاجتماع ص ٢٠ ان الاغتراب هو الحالة السيكو اجتماعية التي تسيطر على الفرد سيطرة تامة تجعله غريباً ، وبعيداً عن واقعه الاجتماعي ، ويجد المؤلف صعوبة في وضع تحليل شامل وعام لهذا الاصطلاح لصعوبة وضع أسس فكرية للبحث الاجتماعي ، لأن هذا الاصطلاح يدخل في عدة موضوعات انسانية كعلم الاجتماع والفلسفة السياسية والاجتماعية والتحليل النفساني والفلسفة الوجودية ، ويتصل هذا الاصطلاح بظواهر التعصب العنصري ، المرض العقلي ، الوعي الطبقي ، الصراع الصناعي والصراع السياسي ...

( ٧ ) الرسالة طبعت بتصحيح الشيخ طاهر الجزائري ( ط ١ المنار مصر ١٣٢٣ هـ ) وهي تقع في ثمانية وثلاثين صفحة وتضمنت اقوالاً وحكماً وقصصاً في موضوعها كما تضمنت على حوالي ثلاثين نصاً شعرياً بين قطعة وقصيدة .

ومن هذه الرسائل كتاب ابي الفرج الأصفهاني ( ت ٣٥٦ هـ ) وقد سماه أدب الغرباء وكتاب اسامة بن منقذ ( ت ٥٨٤ هـ ) المنازل والديار وهو اوسع هذه الكتب .

ولم يحتفل الباحثون لنتاج الاندلس من هذا الأدب على غزارته وتنوعه وكثرة أدبائه لكننا لا نكاد نقلب النظر في مصدر تأريخي أو مجموع أدبي أو ديوان شعري في عصور الأندلس الطويلة ومدنها وأصقاعها المترامية الأطراف حتى نقع على شواهد وأمثلة كثيرة في هذا الباب . حتى جاء السيد أحمد حاجم محمد فأفرد في الموضوع دراسته . وجعلها في خمسة فصول . الغربة الوطنية . والغربة النفسية . والحنين الى الوطن . والحنين الى الأحبة والأهل والأخوان ثم الطبيعة في شعر الغربة والحنين وهي في حوالي مئتين وخمسين صفحة .[١]

وليس من سبيل للاحاطة في مثل دراستنا بهذا الأدب أو استقصاء ضروبه وانماطه . ولكن النظرة المتأنية تسلمنا الى الوقوف على دواعي الغربة والحنين التي كانت تهيج وتحرك مكامن الصبوة ولواعجها .

ويتجلى الشعور بالغربة والحنين الى الوطن في جملة اسباب منها . الرحلة في طلب العلم . على نحو ما كتب به ابن الفرضي ( ت ٤٠٣ هـ ) وهو في طريقه الى المشرق وكان قد رحل وتغرب حيث يقول :[٢]

مضت لي شهور منذ غبتم ثلاثة ... وما خلتني ابقى ـ اذا غبتم ـ شهرا
سأستعتب الدهر المفرق بيننا ... وهل نافعي ان صرت استعتب الدهرا
وتالله ما فارقتكم عن قلى لكم ... ولكنها الاقدار تجرى كما تجرى

ومنها الرحلة عن الوطن بسبب الحروب والفتن الداخلية التي حلت بمدن الأندلس وابرز هذه الفتن التي انعكست اثارها في الشعر الأندلسي . الفتنة القرطبية على نحو ما تعكسه ابيات ابي بكر محمد بن قاسم ( اشكهباط ) الذي نشأ بقرطبة وساد فيها ثم اضطرته الحال الى مغادرتها والتجوال في مدن الأندلس ثم في بلاد المشرق فصور غربته ادق تصوير ونقلت ابياته معاناته نقلاً دقيقاً حيث يقول بعد أن اجتاز بحلب :[٣]

---

( ١ ) وهي بعنوان الغربة والحنين في الشعر العربي الأندلسي . رسالة ماجستير ـ جامعة بغداد ١٩٨٢ .

( ٢ ) الجذوة ٢٥٦ ، الذخيرة ١ / ٢ / ١٣٠ .

( ٣ ) المغرب ٢ / ٢١ ، النفح ٢ / ٩٥ .

أين أقصى الغرب من أرض حلب ... أملٌ في الغرب موصول التعبْ
حن من شوق إلى أوطانه ... من جفاه صبره لما اغتربْ
جال في الأرض لجاجاً حائراً ... بين شوقٍ وعناء ونصب

وبعد ان يجري الموازنة غير المتكافئة بين وطنه الذي استودع فيه ذكرياته وبين الأرض التي كتب الله عليه ان يحل فيها ، يلخص محنته فيقول :

يا أحباي اسمعوا بعض الذي ... يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربةٍ ... يرجع الرأس لديها كالذنب
ولئن قاسيت ما قاسيته ... فبما أبصر لحظي من عجب

وتوضح أبيات أخرى الآمه وأحزانه العميقة حين يذكر تغير حاله وطيب مقامه بجوار مجاهد العامري ، بعد تلك الرحلة في بلاد المشرق ،[1]

ولاقيت من دهري وصرف خطوبه ... كما جرت النكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم ... ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن

ومنها ـ ولعلها اقوى عوامل الغربة والحنين ـ الحروب المستعرة بين المسلمين والاسبان وقد اتقدت جذوتها ، بعد سقوط طليطلة ( ٤٧٨ هـ ) كبرى حواضر الأندلس على نحو ما بسطنا الحديث فيه في حين اتسق بنا المقال في موضوع رثاء المدن والممالك ، وتحكى كتب التراجم صورة لأضطراب العلماء والشعراء في البلاد وضربهم في الآفاق أثر سقوط المدن ومنهم علي بن عبد الرحمن الخزرجي ، الذي برع في الفقه والطب فلما استولى القشتاليون على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ غادرها وتجول في مختلف ربوع الأندلس ونزل بطليوس ثم اشبيلية ثم قرطبة وبها توفي سنة ٤٩٩ ،[2] والشعور بالغربة خطوة تالية لسقوط المدينة ، والشاعر يستشعر هذا المعنى سيان ان غادرها أو أقام فيها لأنه في الحالين مدركه ضيم الأسبان وجورهم وأذاهم ... فحين يبقى تحت سلطانهم نجده يعيش غربة نفسية تتلاشى معها قيم الزمان والمكان .. فأن هو نزح عنها اجتر ذكرياته العريقة منها ..

ففي نكبته بطليطلة يقول ابو المعالي الاشبيلي في حالة من الذهول والاستغراب مما آل اليه حاله :[3]

---

( ١ ) النفح ٢ / ٩٦ .
( ٢ ) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٢٥٠ .
( ٣ ) النفح ٤ / ١١٣ .

انا في الغربة أبكي ... ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي ... من بلادي بمصيب
عجباً لي ولتركي ... وطناً فيه حبيبي

وفي نكبته ببلنسية يقول ابن خفاجة مثلها . لكنها تأتي قطعاً من كبده ومزعاً من قلبه حيث يبث همومه ولواعجه فتتسق قصيدته في ثلاثة عشر بيتاً ولاهمية القصيدة آثرنا ايراد اكثرها : [1]

بين شقر وملتقى نهريها ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها
ويغني المكاء في شاطئيها ... يستخف النُهى فحلّت حباها
عيشة أقبلت يُشهى جناها ... وارفٌ ظلها لذيذ كراها
ثم ولت كأنها لم تكد تلبث ... الاعشيّة أو ضحاها
آه من غربة ترقرق بثّا ... آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاقٍ ... آه من دار لايجيب صداها
لست ادري ومدمع المزن رطبٌ ... أبكاها صبابةً أم سقاها

وواضح أن الشاعر في أبياته جمع بين الصوت والصورة الثابتة و الاخرى المتحركة . صوت المكّاء ووارف الظلال . ولذيذ الكرى . وتفاعلهم مع الطبيعة وحركتهم مع غصونها في بطاحها ورباها .. ودموع المزن تبكيها صبابة وربما تسقيها . ولا يملك في آخر ابياته الا أسبال الدموع والاسترسال في البكاء .

فتعالى ياعين نبك عليها من حياة إن كان يغني بكاها
وشباب قد فات إلا تناسيه ... ونفس لم يبق إلا شجاها
ما لعيني تبكى عليها وقلبي ... يتمنى سواده لو فداها

واما لغة ابن خفاجة فقد جاءت ضرباً من السلاسة والرقة . وتتردد في معجمه الفاظ « الغربة » و « الفرقة » كما تتردد الفاظ البكاء في قصيدته بصيغ متعددة . في اربعة مواضع « ابكاها . نبك . بكاها . نبكى » ويعطف عليها لفظتين اخريين « الندب والشجى » . ولم يكتف حتى صعد الزفرات وردد الآهات خمس مرات . واحدة مفردة . واربعاً مجتمعة في بيتين على سبيل « رد العجز على الصدر » . كما يلاحظ اقتباسه من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً . وهو ما يتورع عنه شعراء الاندلس

---

(١) ديوانه رقم ٢٠٢ .

في اكثر اقتباساتهم . في قوله تعالى ( النازعات ٤٦ ) « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الاعشية أو ضحاها » .

وابن خفاجة شاعر الطبيعة غير مدافع ولا منازع ـ كما نعته الدكتور الكريم ـ يبدع ما شاء له الابداع ويحلق ما شاء له التحليق في قصيدته المتقدمة آنفاً . حيث جاءت تعج بالعواطف وتضج المشاعر الى موطنه الذي شحط النوى به ، وباعدت محنة دخول الغزاة اليه ، بينهما فاصبحت القصيدة فيضاً من المشاعر التي ـ ازدحمت فيها صور الذكريات في مخيلته . حتى اننا لا نملك الا الاستسلام لآهاته التي جاءت نفثة مصدور ولوعة مفجوع باعز ما يملك . وقد اختار لتحقيق الانسجام والموسيقى في الأبيات ، الهاء روياً وجعل الردف والوصل حرف المد الألف .

وفي ديوانه قصائد أخرى في هذا الإتجاه[١] . ولم يكن وفاء ابي المطرف بن عميرة شاعر بلنسية ـ في عصر الموحدين ـ أقل من وفاء شاعرها ابن خفاجة في عصر الطوائف والمرابطين . واذا كنا قد حرمنا ديوان هذا الشاعر فأن فيما بين ايدينا من اشعاره ما يجلو لنا هذه الصورة فمن ذلك ابيات احتفظ بها الحميري في روضه حيث يخاطب الشاعر جزيرة شقر التي كانت احدى مدن بلنسية والتي اصابها ما اصابها فيقول :[٢]

كفى حزناً نأي عن الأهل بعدما ... نأينا عن الأوطان فهي بلاقع
نوى غربة حتى بمنزل غربة ... لقد صنع البين الذي هو صانع
وكيف بشقر أو بزرقة مائه ... وفيه لشقر أو لزرق شوارع

ويقول في الأخرى :[٣]

وعاد قلبي من شوق أندلس ... عيدُ أسى فته وما فتر
فأين منا منازل عصفت ... ريح عليها من العدا صرصر
ودون شـــقر ودون زرقـــتـــه ... أزرق يحكي قناه أو أشقر

وممن تركت نكبة بلنسية اثارها عليه ابو عيسى بن لبون وكان من جملة اصحاب القادر يحيى بن ذي النون حيث رأس بمربيطر من اعمال بلنسية فلما تغلب السيد الكمبيطور على بلنسية تخلى عنها لأبي مروان بن رزين ثم بعد ذلك ضرب في الأرض لخيبة امله فقال في ذلك[٢] .

---

( ١ ) ديوانه ق ٧٨ وتنظرق ٦٥ و ق ٢٧٦ ( ٢ ) الروض المعطار ص ٢٥٠
( ٢ ) نفسه ص . ٢٥
( ٣ ) القلائد ١١٥ ، الحلة السيراء ٢ / ١٦٨ وتنظر الحزيدة ٢ / ٣٧٥ .

ذروني اجب شرق البلاد وغربها لاشفي نفسي او أموت بدائي
فلست ككلب السوء يرضيه مربض وعظم ، ولكني عقاب سماء
وكنت اذا ما بلدةٌ لي تنكرت شددت الى أخرى مطي إبائي
وسرت ولا ألوي على متعذر وصممت لا اصغي الى النصحاء

وقال من قصيدة اخرى[1]:

خليلي ما بالي على صدق عزمتي أرى من زماني ونية او تعذرا
ووالله ما أدري لاي جريمة تجنى ، ولا عن اي ذنب تغيرا
لئن شان تمزيق الزمان لدولتي لقد رد عن جهل كثير وبصرا

فكان من اثر ذلك ان انعطف ابن لبون عن الدنيا واعرض وصار الى الزهد فيها واعتزل الناس وتقترن قصائد الغربة والحنين بالحروب الدائرة بين المسلمين والأسبان على نحو ما نجد في قصيدة لابن الجنان يشتاق فيها الى مرسية التي ادى سقوطها الى نزوح الشاعر عنها فصار يستذكر ايام الصبا والشباب ، والغربة النفسية تركت اثاراً عميقة الأغوار في نفس الشاعر[2].

ولم أنتفع بالعيش بعد فراقكم وإن كنت قد هنيت بالعيشة الرغد
فما ساغ شرب في البعاد ولا حلا ولو أنه التسليم يمزج بالشهد
فداءٌ لأيام التداني وطيبها زماني ، وإن قل الزمان ، لما أفدى
فقدت بفقديها التأنس كله وأعجب شيء إن سلمت من الفقد
فقل كيف صبري واحتمالي ودونما أقاسيه ما هد القوى أيما هَدّ

ويحفظ ديوان الشعر الأندلسي صوراً أخرى من دواعي التغرب واسباباً مختلفة ـ فضلاً عما تقدم ـ فقد يرحل الشاعر حين تضيق به سبل العيش فمن ذلك ما تصوره لنا ابيات قاضي المرية ابي الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعيني ( ت ٤٣٥ هـ ) حين يزمع على العودة الى موطنه فيخاطب بني حمود في قرطبة ويقول[3]:

الا فأذنوا لي بالسراح فانها نهاية مطلوبي وفيه عذاب
فاني قد خلفت في أفق موطني فراخاً هو اهم ليس عنه مناب

---

( ١ ) القلائد ١١٤ ، الحلة السيراء ٢ / ١٦٨ الخريدة ٢ / ٢٧٨
( ٢ ) ق ١١
( ٣ ) المغرب ٢ / ٢٠٧

ولبعض الشعراء أبيات خاطب فيها الملك الكامل بعدرحيله الى بيت الله الحرام واشتياقه الى وطنه فيقول[1].

لأن صدني البحر عن موطني وعيني بأشواقها زاهرة
فقد زخرف لي مكة بأنوار كعبته الزاهرة

واذا كنا قد وقفنا في الصفحات السابقة على دواعي الغربة والحنين فلنا ان نتوقف عند ابرز ملامح هذا الاتجاه وابرز معانيه . ونستطيع ان نشخص اتجاهين مختلفين في هذا الموضوع يمثلان طبيعة الحياة في الأندلس منذ الفتح حتى جلاء المسلمين عنها .

فالمرحلة الاولى تمثل لنا شعراء في وطنهم الجديد بالاندلس حيث اقترنت ذكرياتهم بمدنهم وأوطانهم التي غادروها بعد فتح الأندلس فكانت معاني الغربة والحنين الى بلاد المشرق . وتمثل لنا أشعار عبد الرحمن الداخل وشعراء عصره وقد تقدمت ابياته في موضعها . هذا الاتجاه .

اما الاتجاه الثاني فيمثل الشاعر الأندلسي الذي نشأ فيها وترعرع على أرضها فتعلق قلبه بحبها ثم دعته ظروف قاهرة ودواع تقدم الحديث فيها سالفاً . الى الرحلة عنها وتأتي هذه الرحلة في ضربين يتمثل اولهما في رحلة الشاعر الى بلاد المشرق والثاني فتمثله رحلة الشاعر من مدينته الى مدن اندلسية أخرى .

ولعل من اقدم النصوص الشعرية الابيات التي نظمها عبد الملك بن حبيب ( ت ٢٣٨ ) حيث كتب بها الى اهله سنة ٢١٠ هـ وفيها يقول :[2]

أحب بلاد الغرب والغرب موطني ألاكل غربي إلى حبيب
وياكبدأ عادت زماناً كأنما يلدغها بالكاويات طبيب
بليت وأبلاني اغترابي ونأيه وطول مقامي بالحجاز أجوب
فما الداء إلا أن تكون بغربةٍ وحسبك داء أن يقال غريب
فياليت شعري هل أبيتن ليلةً بأكناف نهر الثلج حين يصوب
وحولي أصحابي وبنتي وأمها ومعشر أهلي والرؤوف مجيب

وابيات ابن الفرضي التي تقدمت بنا سالفاً هي الأخرى تمثل هذا الاتجاه .

---

(١) النفح ٤ / ٢٢٦
(٢) الاحاطة ٢ / ٥٥١

وقصائد الشعراء الدخلاء على الأندلس امثال ابن حمديس الصقلي وابن شرف القيرواني وابو الحسن الحصري القيرواني وامثالهم تحمل هذا الطابع ولكن بصورة معكوسة نجدها مضمخة بمعاني الغربة والشوق والحنين الى اوطانهم بعد ان حل بها ما حل بمدن الأندلس فيما بعد فقد غادر ابن شرف القيروان بعد الفتنة التي حلت بها ولم يزل يحتفظ بذكرياته العبقة عنها وقلبه يصطلي بنيران الصبابة على نحو ما يقول :[1]

ياقـــيروان وددت أنـــي طائر فأراك رؤية باحـــث مـــتأمـــل
آهاً وأية آهة تـــشـــفـــي جوى قلب بنيران الصبابة مصطلي
أبدت مفاتيح الخطوب عجائباً كانت كوامن تحت غيب مقفل
زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى بذراك يصرخ كالحزين المثكل

ويقول من اخرى يصف فيها آخر الصور التي شخصت في مخيلته قبل رحيله وهي طويلة قطف ابن بسام عيونها :[2]

آه لـــلـــقـــيروان أنة شـــجوٍ عن فؤادٍ بجاحم الحزن يصلى
حين عادت به الديار قبوراً بل أقول الديار منهن أخلى
بعد يومٍ كأنما حُشِر الخل ق حـــفاة بـــه عواري رجـــلـــي
ولـهـم زحـمةٌ هـنالـك تـحـكـي زحـمة الـحـشر والـصـحائـف تُـتلى
وعـجـيـج وضـجةٌ كـضـجـيـج ال خـلـقِ يـبـكون والـسرائر تُـبْـلـي
ليت شعري هل عودةٌ لي في الغيـ ـب إلى ما أطال شجوي أم لا ؟

وفي ديوان ابن حمديس قصائد كثيرة يتشوق فيها الى صقلية مسقط رأسه ومرتع شبابه وكانت تلك القصائد مسلاة له عن النكبات التي كان يسمع اخبارها وهو في الاندلس ويطيب بها قروح نفسه والآمها :[3]

ذكرتُ صـــقـــلـــيةُ والأسى يُـهـيَـجُ لـلـنـفـس تذكارها
ومـنـزلةً لـلـتـصابـي خـلـت وكان بـنـو الـظرف عمارها
فإن كنتُ أخرجت من منةٍ فإنـــي أحدث أخـــبارها
ولولا مـلوحةُ مـساء الـبـكا حـسـبـت دموعـي أنـهارها

---

(١) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢٣
(٢) الذخيرة ٤ / ١ / ٢٢٧ ـ ٢٢٩
(٣) ديوانه ق ١١٠

ويتمنى لو يتاح له ان يلقى نظرة على وطنه ويمتع ناظريه بصعيده وجمال ربوعه ولكن خضوعه للعدو وسيطرة النورمانيين عليه يحول دون تحقيق ذلك الأمل الى الأبد :[1]

ولو ان أرضي حرة لأتيتها بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن ارضي كيف لي بفكاكها من الأسر في ايدي العلوج الغواصب
أمثلها في خاطري كل ساعة وأمري لها مطر الدموع السواكب

وتبقى صورة الوطن لاتبارح ذاكرته حيثما ذهب واينما اتجه ويجد فيما يحيط به مايذكره بهذا الوطن فيخاطب اللينوفر فيقول :[2]

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الاوطان ازعجه الدهر

وفي البيت مافيه من عمق الأثر وبعد الغور لشعور الشاعر بالغربة والحنين على الرغم مما رآه الدكتور احسان عباس من ان وقفته عند معنى الغربة امام اللينوفر ليست الاوقفة عابرة .[3]

واما الضرب الثاني الذي اشرنا اليه فيتجلى في شعر عدد كبير من شعراء الأندلس . فأبيات ابن زيدون القافية التي عرضنا لها في موضع سابق يوجهها من الزهراء الى ولادة وهي بقرطبة . فيها نبرة الحزن والتذكر . وقصيدته الحائية التي مطلعها :[4]

خليلي لافطر يدوم ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقاً كما اضحى

يوجهها من بطليوس الى قرطبة كذلك . ومن بطليوس كذلك يشتاق الى وطنه بعد ان ينتقل بين بلنسية وطرطوشة والحنين يمزق قلبه شغفاً بوطنه وتشوقاً الى هواه القديم :

يادمع صُب ما شئت أن تصوبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
إذا أتيت الوطن الحبيبا

---

(١) ديوانه ق ٢٧
(٢) نفسه ق ١١٣
(٣) تاريخ الادب الاندلسي ٢ / ١٩٩
(٤) الديوان : ١٥٨ ـ ١٦١

فحيي منه ما رأى الجنوبا
حيث ألفت الرشأ الربيبا

ولابن عمار بعد ان نفاه المعتضد الى سرقسطة قصيدة طويلة فيها معاني الغربة والشوق الى ذكرياته في اشبيلية وشلب[1]:

الا قاتل الله الجياد فانها نأت بي عن أرض العلى والمكارم
اشلب ولا تنساب عبرة متفق وحمص ولا تعتاد زفرة نادم
كساها الحيا برد الشباب فانها بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم

وتجلت ظاهرة الترحل بين مدن الأندلس وما اقترنت به من ذكريات تحفل بها قرائح الشعراء في عصر الطرائف فلا نكاد نرى الشاعر يستقر به المقام في مملكة من ممالك الطوائف ويطيب له المثوى مزدلفاً لأحد ملوكها يخرج ثانية الى بلاط ملك آخر ويستشعر معاني الضياع والغربة منذ ابتعاده عن مدينته الأم على نحو ما نجد عند ابن اللبانة الاندلسي في قوله:[2]

رماني الدهر في كل النواحي فأثبت في مقاتلي النبالا
وصيرني غريباً في مكان به الغرباء تكسب والعيالا

وهو يستشعر تكالب الهموم وتزاحم الاحزان عليه من كل جانب فيقول:[3]

قد طال بي أقطع البيداء متصلاً وليس يسفر عن وجه المنى سفر
كأنما الأرض عني غير راضية فليس لي وطن فيها ولا وطر
ان الهموم مع الأعمار ماشية لا ينقضي الهم حتى ينقضي العمر

ولم يختلف ابن بقى في كثير عن ابن اللبانة فيتجول في مدن الأندلس. ويضيق ذرعاً بها:[4]

قالوا تغربت عن اقطار اندلس ومن يقيم على هون وإقلالِ

---

(١) محمد بن عمار ص ٢١٠
(٢) شعر ابن اللبانة الداني ق ٦٢.
(٣) نفسه ق ٢٥.
(٤) المورد ٧ / ١ / ١٤٢ ق ٢٤.

وقد اضطرب الأمر بابن السيد البطليوس كذلك على نحو ما نجده في مجموع اشعاره [١].

واما معاني شعر الغربة والحنين فقد اشار اليها الدكتور عبد العزيز عتيق ومنها الشوق الى الاوطان وتصوير تجاربهم الذاتية في ديار الغربة وملاعب الصبا وتذكر ايامهم وعهودهم السعيدة وكان بعضهم يمدح الاغتراب واكثرهم يذمه ثم يلاحظ ان الشعراء كانوا يمزجون بين الحنين والطبيعة في صورهم الشعرية وتفضيل البقاء في الوطن مع التشظف والفاقة على الاغتراب مع الغنى والسعة ، وتصوير مالقيه بعضهم من عدم الترحيب والتقدير وبالتالي الندم على مجازفته بالاغتراب .[٢].

ونجد هذا الموضوع يتصل بأكثر موضوعات الشعر الأخرى وهو حيناً يتصل بشعر الوصف حينما يصف الشاعر الطبيعة . كما نجده في شعر ابن خفاجة الأندلسي في أبياته التي تقدمت بنا سالفاً . وفي قصيدته العينية التي يقول فيها :[٣]

أجبت وقد نادى الغرام فأسمعا ... عشية غناني الحمامُ فرجّعا
فقلت ولي دمعٌ ترقرق فانهمى ... يسيل وصبرٌ قد وهى فتضعضعا
ألاهل الى ارض الجزيرة أوبةٌ ... فأسكن أنفاساً وأهدأ مضجعاً
واغدو بواديها وقد نضح الندى ... معاطف هاتيك الرُّبى ثم اقشعا
أغازلُ فيها للغزالة سِنَّةً ... تحط الصَّبا عنها من الغيم برقعا
وبات سقيط الطلّ يضرب سرحةً ... ترف بواديها وينضح أجرعا
أقلب طرفي في السماء لعلّني ... أشيم سنا برقٍ هناك تطلعا

« فالطبيعة الأندلسية مصدر الهام الشعراء والفيض الزاخر الذي يستمدون منه افكارهم وموضوعاتهم فرؤية الغراب عندهم او سماع نعيقه يعني الاستعداد للرحيل او الغربة والتمتع بترجيع صوت الحمامة يثير فيهم الوجد والحنين . والنخلة رمز يمثل المشرق وهو مايحرص عليه الأندلسي ويهتم بها لأنها غريبة تحاكي غربته والزهرة نبتة جميلة تتجسد فيها صور محبوبته . والريح والرعد والبرق تذكي فيه جذوة الشوق والحنين »[٤]

---

( ١ ) ابن السيد البطليوس ، مجلة المورد ٦ / ١ / ١٩٧٧ .
( ٢ ) الأدب العربي في الأندلس ٢٧٤ .
( ٣ ) ديوانه ق ٧٨
( ٤ ) الغربة والحنين في الشعر العربي الاندلسي ٢٤٥ .

ومما يندرج في هذا الاتجاه ، قصيدة من عيون الشعر الأندلسي للرصافي البلنسي ( ت ٥٧٢ هـ ) الشاعر العفيف ، وهو بابياته يخلد ذكر مدينة بلنسية الجميلة اروع تخليد حين نعتها بأروع النعوت فيقول :[١]

خليلي ماللبيد قد عبقت نشراً ... ومالرُّوس الرُّكب قد رنحت سُكرا
خليلي عوجا بي عليها فانَّه ... حديث كبرد الماء في الكبد الحرَّى
بجسر معانٍ والرُّصافة إنَّه ... على القطر أن يسقى الرُّصافة والجسرا
بلادي التي ريشت قويديمتي بها ... فريخاً وآوتني قرارتها وكرا
مبادىء لين العيش في رِيَق الصبا ... أبى الله أن أنسى لها أبداً ذكرا
بلنسية تلك الزبرجدة التي ... تسيل عاليها كل لؤلؤة نهرا
معاهد قد ولت إذا ماعتبرتها ... وجدت الذي يحلو من العيش قد مرَّا

ويلاحظ ان نفس الغربة ضعيف ، واما سمة الوصف لطبيعتها فقد كانت أظهر وأقوى . كذلك يقترن موضوعنا بشعر رثاء المدن والممالك على نحو ما ذكرنا في دواعيه وهو يأتي عند ابن زيدون مقترناً بشعر الغزل والنسيب . كما يتصل بشعر الاخويات والمراجعات .

واما شعراء هذا الاتجاه فكثر ولايكاد ديوان شعراء الأندلس يخلو من شعر هذا الاتجاه ولكننا نشير الى شاعر اكثر من ذكر هذا المعنى فضلاً عن الشعراء الذين تعرضت دراستنا لهم ذلكم هو ابو عامر بن الاصيلي الذي ترجم له ابن بسام في ذخيرته وأورد له اشعاراً في هذا الاتجاه منها قوله[٢]:

على سرقسطة أبكى دماً ... وأمواهها العذبة المحييه
وقوم كرامٍ فوا حسرةً ... على الجمع منهم أو التثنيه
وأصبحت في بلدةً أهلها ... سباع لأهل النهى مؤذيه
تعوضت منها بأرض أرى ... أفاعيل أربابها مليه

وكان من اهل سرقسطة فاضطر الى الضرب في آفاق مدن الأندلس . وقد تكسب بالشعر زمناً ، لكنه لم يطب له المقام في مدن اندلسية كثيرة . فدعاه ذلك الى

---

( ١ ) ديوانه ق ٢١ ص ٦٨ ـ ٧٠
( ٢ ) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٥٩

هجائها ، لامر نجهله ... مما يجعل شعوره بالغربة والحنين الى الوطن ذا أبعاد خاصة ، فقد جعل الناس اوغاداً تعتمر دوراً ، وشكا الفاقه .[1]

الى ايـــن الـــفرار ولا فرار ... ومـــن لـــي بالـــقرار ولا قرار
ارى الأوغاذ يـــعـــتـــمرون دوراً ... ومالـــــــــي في بلاد الله دار
بلاد عريـــت مـــن كـــل خـــيرٍ ... فـملـبس أهـلـها مـقـت وعار
غـلـطـت فزرتـها فرأيـت قوماً ... مـــنازلـــهـــم وإن عـــمرت قـــفار

وقد بلغت به الرحلة اشبونة ايام اقامة ابن بسام بها فالتقى به وانعقد الود بينهما ونلقاه في ثالثة ، بعد أن قصد قلمرية ، وكان اذفونش قد أخضعها لسلطانه[2]

قـلـقـت وحـق بأن يـقـلـقا ... مـــصون غدا غرضاً لـــلـــشـــقا
وردت قـــلـــمريةُ طامـــعاً ... فـــلـــم ألـــف برأ ولا مرفـــقاً
إذا الـــــــــشوق مر على خاطري ... شرقـــــتُ وحـــــق بأن أشرقا
أأحـــبابـــنا هـــل لـــنا رجـــعةٌ ... وهـــل لـــي بـــكـــم أبداً مـــلـــتـــقى

---

( ٢ ) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٦١

( ٢ ) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٦٠

## اثر الادب الأندلسي في الآداب الاوربية :

بات من المؤكد أن الأدب العربي في الاندلس كان رافداً من الروافد التي صبت في الأدب الاسباني بوجه خاص وفي الآداب الأوربية بشكل عام ، ولم يكن الأدب سوى فرع من فروع الشجرة الكبيرة التي نمت في الأندلس وآتت ثمارها المتنوعة في ميادين المعرفة كافة . ولم يترك التقدم الحضاري الذي أحرزته الأندلس آثاره في الثقافة العامة في شبه الجزيرة الايبرية بل تجاوزها الى دول أوربية أخرى .

يقرر اكثر الدارسين أن الأندلس وصقلية كانتا أوسع منفذين وبابين ، انتقلت عنهما ضروب المعرفة والثقافة الى أوربة في القرون الوسطى ولقد أستمر هذا التأثير قروناً طويلة ولم يعد المراء مجدياً في انكار هذا الفضل واليد البيضاء التي اسدتها الحضارة العربية فقد أقر بهذا التأثير جل المتخصصين في دراسة الحضارة الأندلسية وآدابها ، ان لم يكن جميعهم وذهبت دراسات أخرى الى تبيين أثر الشخصية العربية وملامحها في المجتمع الاسباني الحديث[١] .

وكان من أثر هذا الانفتاح على الحضارة الأوربية أقبال المتنورين من علماء أوربة على الثقافة العربية بكل ضروبها وانكبابهم عليها بنَهم وشغف شديدين ، ولم يكن نقل هذه الحضارة ليتم بين عشيه او ضحاها ، فقد ظلت ترجمة كتبهم المصدر الوحيد للتدريس في جامعات اوربة خمسة او ستة قرون فيما يذكره غرستاف لوبون [٢] .

ومن الخطأ أن نتصور أن تأثير الحضارة العربية في الحضارة الاوربية اقترن بسنوات سيادة دولة المسلمين في الاندلس ، إذ أن هذا التأثير لم ينته بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ بل استمر بعد ذلك ممثلاً في المورسيكين ، ومن هنا يرى الباحثون أن وجودهم استمر ماثلاً محسوساً طيلة تسعة قرون على الأقل ، وهو مدة كافية لكي يترك العرب في الشعبين الاسباني والبرتغالي من رواسب حضارتهم مالا يزال سمة واضحة لهما حتى اليوم[٣] .

واما الوجود العربي في جزيرة صقلية فقد استمر حوالي ثلاثة قرون بعدافتتاحها ( ٢١٢ ـ ٤٨٤ هـ ) ولم يكن دورها أقل من شقيقتها ـ الاندلس ـ في الاشعاع

---

(١) ينظر ماكتبه د. عادل البكري ، الملامح العربية في المجتمع الاسباني الحديث ، مجلة الاقلام ٦ / ٥٩ ـ ٦٨ بغداد

(٢) حضارة العرب ٥٦٩ ( ترجمة عادل زعيتر ) القاهرة ١٩٦٤

(٣) اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ٢٧

الحضاري ، وكان أثرها في الآداب مباشراً في ايطالية مما أدى الى ابتكار الشعر الوطني حيث بدأت العناية بقَرض الشعر مما أدى الى نهوض الشعر الايطالي[١]

حتى انه لقد اضطرت مدينة « جنوه » ان تؤسس مدرسة لتعليم اللغة العربية سنة ١٢٠٧ ، يدل على ذلك وجود كلمات عربية في لغة هذه المدينة ، وفي جميع اللغات العامية في جميع المدن الايطالية التي كانت تتجر مع الشرق وصقلية ..

لقد أثبت أمارى المواطن الصقلي أن صقلية مدينة للعرب بحضارتها ، كما أن ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة العربية[٢].

وفي الاتجاه الأدبي يرى الاستاذ جلال مظهر ان شواهد التاريخ قد دلت بوضوح انه لم ينشأ مثل هذا الأدب في اي جزء من أجزاء اوربة ، فيما عدا اسبانية وصقلية بطبيعة الحال[٣].

لقد كرست دراسات كثيرة لتتبع اثار الحضارة الاندلسية على اوربة ، ومن هذه الدراسات التي تتبعت جذور التأثيرات وابعادها ، الدراسية القيمة التي أشترك في تأليفها مجموعة من المتخصصين بعنوان اثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية[٤]. ومن فصول الكتاب التي تهمنا ماكتبه الدكتور محمود علي مكي والدكتورة سهير القلماوي عن التأثيرات في مجال الأدب ، وكتاب الدكتور جلال مظهر ، أثر العرب في الحضارة الأوربية ، وكتابان للاستاذ محمد مفيد الشوباشي بعنواني العرب والحضارة الاوربية[٥]، ورحلة الادب العربي الى اوربا[٦]. وكتاب شمس العرب تسطع على المغرب للمستشرقة الالمانية زيغرد هونكة .

لقد مضت مراحل التأثير في الحضارة العربية في ثلاثة أشواط هي[٧]:

---

(١) اثر العلماء المسلمين في الحضارة الاوربية ، احمد علي الملا ص ١٢٤

(٢) نفسه ١٢٤

(٣) العرب في الحضارة الاوربية ص ٢٥٥ ط ( منشورات دار الرائد ـ بيروت ١٩٦٧ )

(٤) اشرف على اعداد هذه الدراسة مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ( اليونسكو ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ ) .

(٥) صدر ضمن سلسلة المكتبة الثقافية رقم ٤٢ ، القاهرة ١٩٦١

(٦) سلسلة مكتبة الدراسات الادبية رقم ٤٧ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨

(٧) تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ص ٤٧٤ ـ ٤٨٧ .

عصر التأثير غير المباشر ، وعصر الترجمة من العربية الى اللاتينية ، وعصر الاستعراب قمة التأثير العربي .

ويتمثل في العصر الاول تأثير الأندلس في الحضارة الأوربية عن طريق البعثات العلمية التي كانت تفد اليها في عصور متقدمة حيث وفد الراهب الفرنسي جربرت دي اورياك في عهد الحكم المستنصر ، وأصبح فيما بعد بابا روما ، وكان له دوره البارز في نشر علوم العرب

وقد تتابعت البعثات الاوربية على الأندلس بشكل متواتر وزادت اعداد الوافدين عليها حتى بلغت سنة ٣١٢ زهاء سبعمائة طالب وطالبة وكان بعض هذه البعثات يضم عدد من الطالبات على نحو ما حصل حين أوفد ملك ولز بعثة برئاسة ابن أخيه تضم ثماني عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان .

ويشير أحد الدارسين الى بعثة كان قوامها مئتين وخمسة عشر طالباً وطالبة قدمت الى الأندلس فصادف لدى ثمانية من أفرادها الاعجاب بالدين الاسلامي حيث اعتنقوه واقاموا مدة حياتهم في الأندلس ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن من رجال الأندلس وانجبن عدداً من العلماء منهم عباس بن فرناس[١] .

واما العصر الثاني فيتمثل في معهد الترجمة الذي أسسه مطران طليطلة ريموندو ١١٢٦ ـ ١١٥٢ م ويعد من كبار مترجمي عصره ، واستمرت حركة الترجمة في القرن السابع الهجري مقرونة بشخصية الفونسو العاشر الملقب بالعالم ( ٦٥٠ ـ ٦٨١ ) حيث انتشرت حركة ترجمة الكتب من العربية ولم تقتصر على كتب العرب انفسهم بل كتب الأمم الأخرى التي ترجمت الى العربية .

واما العصر الأخير فيمثل القرون الثلاثة الأخيرة من السيادة العربية في الأندلس وقد اتصف هذا العصر بـ « القبول الأعمى لكل ما هو عربي والنظر اليه بوصفة الحجة النهائية[٢] » .

سنتوقف وقفة متأنية لتبين مجالات التأثير في الحضارة الاوربية ـ فيما يعنينا ـ في ثلاثة اتجاهات :

---

**( ١ ) اوربا ترسل بعثاتها الى الاندلس ص ٩٠ سليم طه التكريتي مجلة الوعي الاسلامي العدد ٢٧ ، الكويت ١٩٦٨ ، تاريخ العرب وحضارتهم ٤٧٦**

**( ٢ ) تاريخ العرب وحضارتهم ٤٧٩ .**

١ ـ اثر اللغة العربية في اللغة الاسبانية .
٢ ـ اثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي الاوربي .
٣ ـ اثر القصة العربية في القصة الاوربية .

ان كل اتجاه من هذه الاتجاهات اختصته دراسات الباحثين بالعناية والدرس ولا سيما بعد أن ازداد اهتمام العرب بدراسة تراثهم والتعرف على ابعاد تأثيره في الآداب العالمية .. فضلاً عن دراسات الغربيين أنفسهم التي نظرت الى هذه القضية على انها جزء من تاريخها الأدبي .. فكان الموقف بعيداً عن روح التعصب والانحياز قريباً من الموضوعية والنزاهة العلمية ، مما حدا بالكثيرين الى عدم انكار هذه الظواهر ، وعدم التردد في الأقرار بفضل الأدب الأندلسي .. وتتبع هذه التأثيرات خطوة فخطوة .

ومن أقدم المحاولات لرصد آثار اللغة العربية في اللغتين الاسبانية والبرتغالية ما قام به فرانشيسكو مارينا حين أحصى الألفاظ القشتالية ذات الاصل العربي المختصر وذلك سنة ١٨٠٥ يليه المعجم اللغوي الذي اعده دوزي وانجلمان بعنوان « معجم الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية » وصدرت الطبعة الاولى منه سنة ١٨٦١ ، والف ايكيلاث « معجم اشتقاقي للكلمات الاسبانية ذات الأصول الشرقية » غرناطة ١٨٨٦ .

وتتابعت المؤلفات في هذا الاتجاه على نحو ما يحصيه الدكتور حكمت الأوسي في بحثه عن التأثير العربي في الثقافة الاسبانية[١] . فيشير الى بحوث تناولت الالفاظ العربية الاسبانية والبرتغالية وبعض اللغات الأوربية الأخرى ومن الدراسات التفصيلية التي كتبت مبكراً دراسة المستشرق ليفي بروفنسال[٢] عن أثر العربية في اللغة الأسبانية وهو في اصله محاضرة القاها في الجامعة المصرية سنة ١٩٣٨ ويقرر فيها ان اللغة الأسبانية وجدت نفسها مضطرة على ان تأخذ من اللغة العربية لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة ، وبخاصة في مجال المؤسسات والنظم والحياة الخاصة ، والبرهنة على هذا غنية بالشواهد الواضحة على نحو فريد ، فمن تلك الالفاظ التي ما تزال مستخدمة في اللغة الاسبانية في التنظيمات العسكرية ، الفارس (ALFerez) على رتبة الملازم ، و « الطليعة » (Atalaya) على مقدمة الجيش و « الساقة » (Zaga) على مؤخرته .. وغيرها .

---

(١) التأثير العربي في الثقافة الاسبانية ، سلسلة الموسوعة الصغيرة « ١٥٢ » ص ٥٧ وما بعدها
(٢) الحضارة العربية في اسبانيا ١١٥

ومازالت المفرادات المتصلة بالتحصين تحتفظ الى الآن بنفس المعنى الذي كانت عليه فى العصر الاسلامي .

وبعد أن يعدد ألفاظاً كثيرة في هذا الاتجاه يقول :

« سوف تطول بنا الرحلة بعيداً وربما أدى بنا الإسهاب الى الملل اذا حاولنا ان نستقصي المفردات التي دخلت لغة الحياة اليومية ومن ثم سوف نقتصر هنا على الاشارة الى الانواع المتعلقة بمعاني الكلمات »[1] ومن امثلة ذلك اسماء الامكنة التي لما تزل قائمة حتى وقتنا هذا والالفاظ الزراعية في لغة الفلاحين الصميمة ، وفي هذا المقاييس والموازيين وصيد البحر ومعاجم النبات . ويتجاوز الامر ذلك الى الالفاظ الحضارية المتصلة بحياة الترف والرخاء . فقد استخدموا الفاظاً عربية خاصة بقص الشعر وتسريحه . والملابس والأحذية . « فملابس السيدان المسيحيات تزدان من قبل أن تسقط اسبانيا الاسلامية حتى بعد ان استردها المسيحيون على حد سواء . بأروع وأغلى الملابس العراقية وكانت تحمل احياناً اسمهاالعربي نفسه فيقال الجبة (algu bas) والدراعة (adorras) وهي جبة ذات ازرار واللحاف (allthafes) وهو المعطف من الفراء والمبطنة والقماش المقصب (alrext)

والنسيج الحريري ( الطراز ) (altiraz)

ويشير المستشرق مونتكمري واط[2] على نحو تفصيلي الى أبعاد التأثير اللغوي للعربية في فنون الملاحة والمنتوجات الزراعية والمعادن وفي ضروب حياة الترف فيؤكد أن اكثر أسماء الالات الموسيقية من اصل عربي مثل العود(Lude) والقيثارة (guitar) والربابة (rebec) والنقّارة (naker) مما يشير الى أن هذه الالات دخلت اوربة بوساطة العرب ، وهو ما يؤكده الدكتور عبدالرحمن الحجي في دراسته عن الموسيقى الأندلسية[3].

ومن الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة كذلك ما كتبه الدكتور لطفي عبدالبديع حيث قدم احصاءً مماثلاً لسالفيه يقرر معه ان رحلةً في عالم الالفاظ لكفيلة بأن يقف منها المرء على تغلغل اللغة العربية في مناطق الحياة بشبه الجزيرة

---

( ١ ) نفسه ١١٧

( ٢ ) تأثير الاسلام على اوربا في العصور الوسطى ص ٤٢ .

( ٣ ) تاريخ الموسيقى الأندلسية ص ١١١ ط دار الارشاد بيروت .

الايبرية[1]، ولا يفوتنا ان ننوه ببحث المستشرق الامريكي وليم اليوت الذي كرّسه لتتبع بعض تأثيرات العربية في الاسبانية الحديثة[2].

ومع هذا التداخل بين اللغة العربية واللغتين الاسبانية والبرتغالية يقرر عباس محمود العقاد[3]، ان هذه المفردات تملأ معجماً غير صغير، ولكنه يرى أن العبرة ليست بدخولها في صفحات المعاجم ولكن بدخولها في الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية لانها لم تتمثل على الألسنة الا بعد ان تمثلت في احوال ونوازع الاحساس والتفكير.

ويؤكد هذه الفكرة الدكتور حكمت الأوسي حين يجد أن التأثيرات العربية لا تقتصر على بقايا آثارنا او اطلالها هنالك وانما هي ظاهرة شائعة في اخلاق القوم وطباعهم وعاداتهم بل حتى في دمائهم وسحنائهم[4]، ويقرر انه على الرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الالفاظ العربية في الاسبانية فانه لا يزال اليوم اكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الاصل وهو يشكل اكثر من أربعة الاف كلمة.

ومن التأثيرات العربية الواضحة استخدام صوتي الخاء والثاء. فالاسبانية هي الوحيدة التي تستخدمهما بين اللغات اللاتينية. وكذلك استخدام ( ال ) التعريف التي دخلت كثيراً من الكلمات.

الاسبانية حتى ان بعض الدارسين قرر ان كل كلمة اسبانية تبدأ بهذين الحرفين Al هي عربية الاصل[5].

والحق اننا نستطيع ان نعد بحث استاذنا الدكتور الأوسي احد البحوث المتفردة في تتبع واستقصاء الظاهرة اللغوية الناجمة عن تأثيرات العربية فقد رصد تركيبات وصيغاً لغوية ترجمت حرفياً عن العربية ومثل هذه الأساليب والتعابير ـ في رأيه ـ حرية بالدراسة ولذلك قام بمحاولة لجمع هذه التعابير فاجتمع لديه منها حوالي أربعين تعبيراً، يسوق بين يدي كلامه امثلة من هذه التعابير التي يجد ما يناظرها في عاميتنا العراقية ثم يتأول هذه الظاهرة ويعللها.. وقد اتيح للدكتور

---

( ١ ) الاسلام في اسبانيا ١١٣.

( ٢ ) مجلة آداب الرافدين العدد ٩ الموصل ١٩٧٨

( ٣ ) اثر العرب في الحضارة الاوربية ص ٦٨ ( دار المعارف بمصر ١٩٤٦ ).

( ٤ ) فصول في الأدب الاندلسي ١٤٦.

( ٥ ) نفسه : ١٤٨

الأوسي بوصفه عراقياً أن يرصد الظواهر ذات الصلة بالبيئة العراقية لغة وامثالاً وعادات ... بعد أن أقام في مدن اسبانية حقبة من الزمن[١].

ومن الأمثلة الطريفة التي يسوقها في بحثه ما يرويه عن شيخ اسباني هو فرانشيسكو ديسكالث انه كان يعيش عيشة العرب، يحتفل بالمناسبات التي يحتفلون بها ويغني أغاني عربية، ويحث جيرانه على صيام رمضان، ويقال انه كان يتجول من مكان الى آخر وهو يعزف على عوده وبرفقته شخص يساعده ويشترك معه في الغناء والضرب على الدف. وكانا يغنيان اغنيات يذكرون فيها اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم. وكانا مولعين خاصة بان يغنيا باللغة العربية بهذا المعنى: « ايها الناس صوموا في هذا الشهر المبارك كما اعتدتم أن تفعلوا لكي تكسبوا الجنة »[٢] ويشير أحد الباحثين الى وجوه اخرى من ظواهر التأثر بالمجتمع العربي في الأندلس هو الدكتور عبد الرحمن الحجي فيذكر أن الأسبان تبنوا عن طواعية بعض العادات الاسلامية، كالختان، وتوقفوا أحياناً عن اكل لحم الخنزير، كما اتخذوا العربية لغة اخرى، وتسموا بالاسماء الاسلامية الى غير ذلك.[٣]

## ٢ ـ اثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي الأوربي :

تتوقف الدراسات المقارنة عند ابعاد التاثير الذي تركه الأدب الاندلسي من حيث الشكل والمضمون في الاداب الأوربية، وفي مقدمتها الادب الفرنسي والاسباني ...

وكما تعترف الدراسات بفكرة التأثير بسبب الصلات الحضارية التي كانت بين العرب والاوربيين فاننا نجد من الصعوبة ان نتتبع مجالات تأثير الادب، لاسيما ان هناك مجالات شائعة ليس من السهل أن تحدد، ولكنها دالة بطبيعتها على العطاء العربي[٤].

ومن اقدم الاصوات الاوربية التي ارتفعت بحقيقة التأثير ما ذكره العلامة الايطالي G.M.Barbieri منذ القرن السادس عشر الميلادي[٥]، ثم أكد الفكرة الأب

---

(١) نفسه ١٦٢

(٢) نفسه ١٦٢

(٣) تاريخ الموسيقى الاندلسية ، ١١٢

(٤) اثر العرب والاسلام ٢٤

(٥) اثر الشعر الاندلسي في شعر التروبادور ـ عباسة محمد ص ١٨٩

الأسباني خوان اندريس حين نشر كتاباً بالايطالية في سبعة مجلدات بعنوان « اصول كل الآداب وتطورهاواحوالها الرهنة ( بارما ١٧٨٢ ـ ١٧٩٩ ) واعاد نشره في روما في ثماني مجلدات بين سنتي ( ١٨٠٨ ـ١٨١٧) وفحوى الكتاب ان النهضة التي قامت في اوربة في كل ميادين العلوم والفنون والآداب ، والصناعات انما كانت بفضل ما ورثته عن حضارة العرب ، ونظرته هذه كانت اشبه بالهام عبقري[١] .. وقد رأى كذلك : « ان الشعر الأسباني انما نشأ أول مرة ، تقليداً لشعر العرب وان اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي أن يدفع الأول الى تقليد الآخرين »[٢].

ويقرر الاستاذ محمد مفيد الشوباشي ان تأثير الأدب الأندلسي لم يكن عابراً او سطحياً بحيث يمسها مساً عابراً او سطحياً بل انه يجد فيها نهضة ادبية كبيرة غيرت من واقع حاله كما غيرت مضامينه وصوره بعد ان كان اغريقي الموضوع لاتيني اللغة منعزلاً عن الجماهير .. ثم اتصل بالجماهير .. بعد أن كتب بلغاتهم الوطنية وكان هذا التحول بسبب اتصاله بالادب العربي ، ولم يكن من السهل تبدل تلك الحال الا بهبوب نسمات منعشة من ادب متجدد الالوان ، فقد امد الادب العربي اوربة الغربية بالنماذج الأدبية التي كانت تحتاج اليها ، وحول أدبها الى اتجاهات جديدة كانت السبب في انطلاقه قدماً في طريق السمو الفني[٣] وهكذا طلعت من اسبانية وايطالية خلال القرن الثاني عشر بشائر نتاج أدبي كتب بلغتيهما ، وتضمن لوناً جديداً من الافكار والمعاني[٤] ..

ويؤكد الباحثون على تأثير الشعر العربي في بواكير الشعر الغنائي الاوربي ، وقد كانت الخطوة الاولى في هذا الطريق الدهشة التي أصيب بها الدارسون حين فوجئوا بظهور شعرالتروبادور في اوائل القرن الثاني عشر الميلادي دون أن يعرفوا له جذوراً اوربية فقال دييز ، « بما ان هذا الشعر يختلف عن بقية الاشعار الاخرى والسرعة التي تطور بها فهو يشبه الجن الساحرة التي تظهر فجأة من تحت خاتم أحد السحارين ) وقال بيزولا « ان الادب الكورتوازي الفرنسي والبروفنسي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي وبداية الثاني عشر يظهر وكأنه خرج من العدم ،

---

( ١ ) اثر العرب والاسلام ٤١ ، فصول في الادب الاندلسي ١٥١ ، التأثير العربي في الثقافة الاسبانية ٢٢

( ٢ ) العرب والحضارة الاوربية ص ٢٢

( ٣ ) نفسه : ٢١

ويتعجب فوريال من هذا الشعر الغنائي العاطفي الذي لامثيل له في تاريخ الشعر الاوربي .

اما المستشرق بريفو فيرى ان اوربة مدينة في كل شيء الى العالم الاسلامي وان في ادبها متأثرة بالشعر الاندلسي لاسيما في اغراضه الجديدة كموضوع الالبا واغنية الربيع اذ ليس هناك ، اي شعر اوربي ، شعبي وغير شعبي ، فرنسي او اجنبي يشهد ولو من بعيد بأي تشابه للشعرالبروفنسي اللاحق للشعر الاندلسي

لم تكن هذه الدعوة ميسورة الوقع على الباحثين المعاصرين للاسباني خوان اندريس بل كان رد الفعل بينهم عنيفا ولم تلق دعوته تجاوباً حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث تجددت الفكرة والاهتمام بمسألة تأثير الشعر الغنائي في الشعر الاوربي فكان ممن وقف عندها : همربور جشتال ، وتابعه الالماني فون شاك

واذ يستعرض الدكتور محمود على مكي[٢] هذه الآراء يجعل سنة ١٩١٢ سنة حاسمة في هذه القضية حيث خرج ريبيرا بنظريته الجديدة التي تشير الى وجود شعر غنائي مكتوب باللاتينية الدارجة في الاندلس الاسلامية » وكانت هذه النظرية ثورة عارمة احدثت دوياً هائلاً فيما يتصل بمولد الشعر الاوربي الغنائي حيث وجد ريبيرا ان الشعراء البروفنسيين والتروبادور لم يفعلوا اكثر من تقليد نماذج الوشاحين والزجالين الذين سبقوهم بقرنين على اقل تقدير .

وجاء المستشرق الجشيكي نيكل سنة ١٩٣٣ ليعزز نظرية ريبيرا حين نشر ديوان ابن قزمان ودرس الشعر الغنائي على جانبي جبال البرتات . ويمضي الدكتور محمود على مكي في تتبع أنصار هذه النظرية فيذكر ثالثاً هو المستشرق الاسباني بيدال في كتابه الشعر العربي والشعر الاوربي ١٩٣٨ ثم المستشرق الانكليزي شتيرن في بحثه الخرجات الاسبانية في الموشحات العبرية ويتوج هذه الجهود غرسيه غومس حين يكتشف مخطوطاً نفيساً لابن بشري الغرناطي يتضمن اربعاً وعشرين خرجة باللاتينية الدارجة .

واذ يتفق مؤرخو الآداب الاوربية بأن شعر شعراء التروبادور واولهم جيوم التاسع دوق ايكتيانيا وكونت بواتييه ( ١٠٧١ ـ ١١٢٧ م ) ثم سير كامون وماركابرو ـ وبيرد

---

**( ١ ) تنظر هذه الاراء وامثالها في رسالة اثر الشعر الاندلسي في شعر التروبادور ، عباسة محمد ، جامعة بغداد ١٩٨٣**

**( ٢ ) اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٤١ ـ ٤٤**

الفتي وجوفر روديل تمثل اقدم شعر غنائي عرف في اوربا ، حتى اكتشاف الخرجات في الموشحات الاندلسية . حيث تتبين اواصر الشعر الغنائي بين الادبين العربي والاوربي ويكون جيوم التاسع حلقة الوصل بين التوشيح الاندلسي والشعر الاندلسي والشعر الغنائي في اوربة وتتوثق هذه الصلات والوشائج بين الادبين بالشعراء الآخرين .[1]

وقد قطعت الدراسات الاوربية المتصلة بهذا الموضوع شوطاً بعيداً ثم اعقبتها دراسات لباحثين عرب في مقدمتها دراسة الباحث الجزائري عباسة محمد تناول الباحث فيها الموشحات والأزجال في نشأتها وخصائصها . واختص التروبادور واوائل شعرائه وخصائصه من حيث الشكل في بناء القصيدة واوزانها وقافيتها ولغتها ومضمون هذا الشعر في معانيه المرتبطة بشعر الموشحات مثل الكورتوازية والقصيدة الغزلية والالبا ( اغنية الفجر ) والباستوريلا وشعر الرثاء والشعر الديني وغيرها مما اوقفنا على مظاهر تأثره بالشعر الأندلسي .

وقد وقف عباسة عند عوامل التأثير والتأثر وجاء في قسمين تناول في الاول الشكل الفني لقصيدة التروبادور وفي الثاني موضوعاتها .

ولا بد أن نشيد بجهد الباحث الذي يبدو واضحاً في أنه كرس محاولته في هذا الموضوع مستفيداً فائدة كبيرة من مصادره الاجنبية التي جاوزت الثمانين معتمداً في رصد الظاهرة على نصوص تطبيقية .

واما محاولة الدكتور عبد الاله ميسوم الباحث الجزائري ايضاً فتتجلى في كتابه الموسوم تأثير الموشحات في التروبادور وهي محاولة تسبق جهد زميله المتقدم ، بعدة سنوات[2] فهي تصب في معين واحد وتتجلى هذه الحقيقة من خلال ابوابها الاربع التي تناول فيها ظهور الموشحات في الثقافة الأندلسية . وعوامل تأثير الاندلس في جنوب فرنسا ، والتروبادور البروفانسيين . ثم مظاهر تأثير الموشحات في التروبادور .

ومن الباحثين الاسبان المستشرق الكبير بالنثيا في بحثه الشعر الاندلسي وتأثيره في الشعر الاوربي اعتمد على نصوص شعرية عربية كثيرة لولادة وابن عمار

---

( ١ ) نفسه ٥٣

( ٢ ) ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٨١ ، وتشير مقدمة الباحث الى ان الكتاب رسالة علمية انجزت سنة ١٩٧٦

وابن خفاجة وابي بحر االتجيبي وابي فرج الجياني وغيرهم ليوضح مجالات التأثير في شعر التروبادور والشعر القطلوني والبرتغالي والايطالي والاسباني[١].

ويبدو من الغريب حقاً أن يظهر شعر التروبادور في فرنسة قبل ظهوره في اسبانية . ولكن الظروف التي اقترنت بأول شعرائه توضح سر ذلك . اذ انها كانت مختصة بجيوم التاسع اقدم تروبادور من الفرنسيين على نحو ما يوضح ذلك الدكتور سعد شلبي[٢].

لقد وقف بعض الباحثين موقف الأناة من قضية التأثر بالشعر الأندلسي وذلك بسبب افتقاره الى حجج قاطعة في تعزيز رأيه ومنهم المستشرق الفرنسي بروفنسال وذلك في بحثه عن الشعر العربي في اسبانية وشعر اوربة في العصر الوسيط[٣]. لكن الدراسة الحديثة اقتربت كثيراً من هذه الحجج التي تثير الى اثر عميق في الشعر الاوربي لا ينكره بروفنسال .

أما الاستاذ محمد الفاسي فيعرض لنا اهم الانتقادات الموجهة لتأثير الشعر العربي في الشعر البروفنسالي ومنها ان التروبادور لم يكونوا يحسنون العربية فكيف تأثروا بشعرها وان اشعار ابن قزمان ومواضيعه بعيدة عن الحب السامي الذي نراه عند التروبادور ويرد الباحث الاعتراضين بحجج تقوي وجهة النظر القائلة بتأثير الشعر العربي في الاوربي[٤].

وقد وقفت هذه الدراسات على معنى لفظة التروبادور حيث نجد انها في اصلها مركبة من كلمتين كلمة تروب ومعناها فرقة والمقصود فرقة غنائية وتدور وهي عربية واضحة المعنى فالتروبادور فرقة من الشعراء المنشدين تدور في البلاد لتنشد شعرها[٥].

---

(١) دراسات اندلسية ، د ـ طاهر احمد مكي ص ١٩٢ ـ ٢٢٤ والبحث في اصله محاضرة القاها بالنشيا في المعهد الاسباني التابع لجامعة كولومبيا في نيويورك ونشرت في المجلة الاسبانية الحديثة العدد الثاني يناير ٩٢٥ .

(٢) دراسات ادبية في الشعر الاندلسي ١١٨ .

(٣) الاسلام في المغرب والاندلس ص ٢٠٢ ، والبحث في اصله محاضرة القاها سنة ١٩٤٨ .

(٤) تأثير الشعر العربي بالاندلس في الآداب الغربية مجلة المناهل المغربية العدد ٢٠ مارس ١٩٨١ .

(٥) العرب والحضارة الاوربية ١٠٤ .

ويرى آخرون ان اصل الكلمة ( دور طرب ) ثم قلب الى ( طرب دور ) تمشياً مع اوضاع بعض اللغات الاوربية في وضع الصفة قبل الموصوف والمضاف اليه قبل المضاف فأصبح تروبادور[١].

ولعله من الطريف ان نجد احد الباحثين العرب ينحو في البحث منحاً جديداً فيكتب بحثاً ليخلص منه الى القطع ـ فيما يرى ـ بأن شعر التروبادور لم يتأثر بمفهوم الحب الذي تصوره الموشحات والازجال برغم ما قد يبدو بين المفهومين من تشابه جزئي طفيف[٢]

ومن المصادر الاندلسية التي اثرت في شعراء التروبادور كتاب طوق الحمامة[٣].

## ٣ اثر القصة العربية في القصة الاوربية :

يأتي الوجه الثالث لتأثير الادب الاندلسي ، في اثر القصص العربي في نظيره الاوربي ، وهو فضل يضارع فضل شعرهم ـ كما يرى الاستاذ الشوباشي ، معللاً ، فكلاهما تعاون على تحقيق نهضتها الأدبية التي قام عليها صرح رقيها الحضاري .

ومن المستشرقين الذين قالوا بهذا التأثير المستشرق رينان وذلك حيث يقول : « من المسلم به عموماً ان اوربا استوردت من العالم الاسلامي قصصه ورواياته وحكمه وأمثاله »[٤] كما يقول جاستون بارى : « ترجم عدد من القصص العربية الى الفرنسية والالمانية والايطالية والانجليزية وغيرها من اللغات الاوربية ، وتولدت منها سلسلة طويلة من الروايات بل هناك مجموعة كاملة من قصص عربية الأصل انتقلت الى اوربة بفضل « بوكاشيو » وغيره من الكتاب الايطاليين .

ويشير بارى الى القصص الفرنسية المشهورة التي نبعت مباشرة من أصل عربي منها قصة « فلوارو بلانشفلور » وقصة « اوكاسين » و « نيكوليت » و « وصية

---

( ١ ) تاريخ الموسيقى الاندلسية ١٣٢ .

( ٢ ) صلة الموشحات والازجال بشعر التروبادور ١٤٢ .

( ٣ ) دراسات عن ابن حزم ٢٤٦ .

( ٤ ) رحلة الادب العربي الى اوربة ١٢٥ ، وهو الذي انكر وجود اية صلة بين الشعر الاوربي والشعر العربي .

( ٥ ) الادب الفرنسي في القرون الوسطى ١١٩ ، نقلا عن رحلة الادب العربي الى اوربة ١٢٦ .

كلب » و « الليلة الطويلة » و « الطبيب الشرير » واقتبس موليير عن القصة الاخيرة مسرحيته « طبيب برغم انفه »[١].

ولذلك فأن هذا اللون من الادب انتشر على نطاق واسع الى حد ان دراسته تحتاج الى بحث كامل يخصص لها[٢] ويرى مثل هذا الرأي الدكتور سعد شلبي[٣].

وعلى ان الدراسات تؤكد على المصدر الشرقي في انتقال تأثيرات القصة العربية الى أوربة فأن دور الأندلس لم يكن أقل من صنوه المشرق العربي . ان اي دراسة لتاريخ القصة في اوربة لا يمكن ان تهمل الجذور العربية التي تأثرت بها حين ظهرت قصص ذات طابع شعبي متأثرة بالقصص الشعبي في الأدب العربي واحدثت انقلاباً في فنون الأدب لدى غرب اوربة التي اقتصرت على القصص الخرافية والملاحم الاسطورية وذلك بعد ان غزت الحضارة الأندلسية أوربة وخطفت انظار امراء الجنوب الفرنسي وخلبت البابهم واشعرتهم بتأخرهم فكان تأثرهم بفن القصة صورة لاحتذائهم العرب في كل حركة وسكنة وفي كل مظهر ومخبر[٤].

واذا كان الأمر كذلك فان الباحثين يتتبعون مصادر النهضة القصصية في الأدب الاوربي بعد أن نسي التراث القصصي القديم الاغريقي واللاتيني . خلال العصور الوسطى .

أنّ اول مجموعة قصصية كتبت باللاتينية هي ( محاضرات الفقهاء )[٥] أو ( أدب العلماء )[٦] التي الفها اليهودي المتنصر بدرو الفونسو . وقد الفها اوائل القرن الثاني عشر لكنها لم تنشر حتى سنة ١٨٢٤ كان ذلك في باريس ثم تعاقبت طبعاتها اللاتينية . وتتضمن هذه المجموعة ثلاثين قصة شرقية عربية . نص على ذلك لأنه كان واثقاً من انهم لن يمتعضوا او يتضجروا لهذا النقل . والمجموعة القصصية تصدر عن رجل على فراش الموت اطلق عليه اسم العربي يوصي ابناً له ويعظه ولذلك تأتي القصص ذات نكهة عربية[٧].

---

( ١ ) الادب الفرنسي في القرون الوسطى ٢٢٢ نقلاً عن رحلة الادب ، ١٢٧ .

( ٢ ) المصدر السابق ص ١٢٦ .

( ٣ ) دراسات ادبية في الشعر الاندلسي ١١٣ .

( ٤ ) رحلة الادب ٢٤٠ .

( ٥ ) اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٧٠ .

( ٦ ) الاسلام في اسبانية ١٢٥ .

( ٧ ) نفسه ٧١ .

وتؤكد الدراسات في هذا الخصوص على ان مصادر القصص التي، تركت آثارها في الأدب الاوربي هي ثلاثة ، المجموعة الاولى من اصل شرقي انتقلت الى الاداب الاوربية بعد ترجمتها عن العربية وهي ثلاث قصص مشهورة ذات اصول هندية هي ( كليلة ودمنة ) وقصة ( السندباد ) والقصة الصوفية ( برلعام ويواصف ) . وقد استوحى لافونتين مجموعة خرافاته المنشورة ١٦٧٨ م من قصص كليلة ودمنة وقام كاتبان ايطاليان بتقليد هذه القصص وهما فيرنزولا والدوني .

أما قصة السندباد فقد نقلت الى القشتالية سنة ١٢٥٣ م تحت عنوان مكايد النساء وحيلهن وهذه القصة ترد في كتاب الف ليلة وليلة كذلك ، ولعل اهم اثر تركته هذه القصص يبدو واضحاً في مجموعة بوكاتشيو ( الليالي العشر )[١] أو ( الصباحات العشرة )[٢] .

واما القصة الصوفية فقد كانت اكثر ذيوعاً في اللغات الاوربية فضلاً عن الاسبانية حيث اصبحت اساساً لقصص رايموند لوليو الميورقي ( الكافر والعلماء الثلاثة ) ومجموعة خوان مانويل ( كتاب الاحوال ) وقصة بوكانشو « الخوانم الثلاثة » وغيرها .

أما المصدر الثاني في هذا المجال فالمقامات اذ تبدو آثارها في القصص البيكارسيكي والمقصود به قصص الشطارة ويوجز خصائص هذا الأدب احد الباحثين بست نقاط ثم يخلص الى انها تطابق المقامات العربية تطابقاً كبيراً يقرر ما قال به الاسبان من تأثر هذا الادب بالمقامات على الرغم من وجود فارق بين الادبين يتصل بتطورهما[٣].

وتأتي قصة حي بن يقظان لتكون المصدر الثالث ، وقد الفها ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ ، وكانت قد ترجمت سنة ١٨٦١ الى اللاتينية ثم بعدها الى اللغات الاوربية الحديثة ، وتأثيرها واضح في قصة (روبنسون كروزو التي الفها دانيل دي فو[٤] .

وممن درس آثار هذه القصة على الأدب الاوربي الدكتور محمد رجب البيومي في الفصل الذي وسمه : الاندلس معبر القصة الى اوربة فأشاد بها « وكان طبيعياً ان يتجادل الكاتبون حولها فظهرت مجموعة من البحوث تزن افكارها وتحدد مدى ابتكارها وتجديدها »[٥].

( ١ ) نفسه ٧٩ .

( ٢ ) اثر العرب في الحضارة الاوربية ٦٢ .

( ٣ ) اثر الحضارة ٩٢ .

( ٤ ) الاسلام في اسبانيا ١٣٩

( ٥ ) الادب الاندلسي بين التأثير والتأثر ١٤٦ .